

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

العدد: ٤٧ جمادى الأولى ١٤١٦ هـ السنة الخامسة عشرة

التوحيد والوساطة في التربية الدعوية

الجزء الأول

فريد الأنصاري


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

بسم الله الرحمن الرحيم

التوحيد والوساطة في التربية الدعوية

الجزء الأول

الطبعة الأولى

جمادى الأولى ١٤١٦هـ

أيلول (سبتمبر) - تشرين الأول (أكتوبر) ١٩٩٥م

٢١٨
فريد الانصاري
التوحيد والوساطة في التربية الدعوية / تاليف فريد الانصاري :
الدوحة: وزارة الأوقاف والشئون الاسلامية ، ١٩٩٥
١٣٦ ص ، ١٨ سم - (كتاب الأمة ، ٤٧)
(أيداع : ٣٨٢ / ١٩٩٥)
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ - ٢٢ - ٢٢ - ٩٩٩٢١
أ. العنوان ب . السلسلة

ما ينشر في هذه السلسلة يعبر عن راي مؤلفيها



صـــدر منـــه :

- مـشكلات في طريق الحيـاة الإسـلاميـة

« طبعـة ثالثـة » - الشيخ محـمـد الغـزالي

- الصحـوة الإسلاميـة بين الجحـود والتطرف

« طبعـة ثالثـة » - الدكتـور يوسـف القرضـاوي

- العـسكرية العـربيـة الإسـلاميـة

« طبعة ثالثة » - اللواء الركن محمود شيت خطاب

- حـول إعـادة تشكيل العـقل المسلم

« طبعـة ثالثـة » - الدكتـور عـماد الدين خليل

- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محمود حمدي زقزوق

- المذهبيـة الإسـلاميـة والتـغيـير الحضـاري

« طبعة ثالثة » - الدكتور محـسن عبد الحميد

- الحـرمـان والتخلف في ديـار المسـلمين

« طبعة ثالثة+طبعة إنجليزية » - الدكتور نبيل صبحي الطويل

- نظـرات في مـسـيـرة العـمل الإسـلامي

« طبعـة ثانيـة » - عـمـر عـبـيـد حـسـنه

- أدب الاخـتـلاف في الإسـلام

« طبعة ثانية » - الدكتور طه جابر فياض العلواني

- التـــــــراث والمعـــــــاصـــــــرة

« طبعة ثانية » - الدكتور أكرم ضياء العمري

- مشكلات الشباب : الحلول المطروحة والحل الإسلامي

« طبعة ثانية » - الدكتور عباس محجوب

- المسلمون في السنغال ـ معالم الحاضر وآفاق المستقبل

« طبعة أولى » - عبد القادر محمد سيلا

- البنـــــوك الإســـــلامـــــيـــــة

« طبعة أولى » - الدكتور جمال الدين عطية

- مـــــدخـــــل إلى الأدب الإســـــلامي

« طبعة أولى » - الدكتور نجيب الكيلاني

- المخـدرات مـن القلق إلـى الاسـتـعـبـاد

« طبعة أولى » - الدكتور محمد محمود الهواري

- الفـــكر المنهـــجي عنـــد المحـــدثين

« طبعة أولى » - الدكتور همام عبد الرحيم سعيد

- فـقـــه الدعـــوة مـــلامح وآفـــاق في حـــوار

الجزء الأول والثاني «طبعة أولى» + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ عمر عبيد حسنه

- قضية التخلف العلمي والتقني في العالم الإسلامي المعاصر

« طبعة أولى » - الدكتور زغلول راغب النجار

- دراســـــة فـي الـبـنـاء الحـــــضــــاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمود محمد سفر

- في فــقــه الـتـديـن فـــــهـمًـا وتــســنـزيــلاً

الجزء الأول والثاني «الطبعة الأولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبدالمجيد النجار

- في الاقتصاد الإسلامي (المرتكزات ـ التوزيع ـ الاستثمار ـ النظام المالي)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور رفعت السيد العوضي

- النظرية السياسية الإسلامية في حقوق الإنسان الشرعية ـ دراسة مقارنة

«طبعة أولى»+طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور محمد أحمد مفتي والدكتور سامي صالح الوكيل

- أزمـتنا الحضـارية في ضـوء سنة الله في الخلق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد محمد كنعان

- المنهج في كتابات الغربيين عن التاريخ الإسلامي

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عبد العظيم محمود الديب

- مـقـالات في الدعـوة والإعـلام الإســلامي

« طبعـة أولى » + طبعة خاصة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ نخبة من المفكرين والكتاب

- مقومات الشخصية المسلمة أو الإنسان الصالح

« طبعـة أولى » + طبعـة خاصـة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها

« طبعـة أولى » + طبعـة خاصـة بمصر وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني

- الصحوة الإسلامية في الأندلس

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور علي المنتصر الكتاني

- اليهود والتحالف مع الأقوياء

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي

- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ منصور زويد المطيري

- النظم التعليمية عند المحدثين

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الأستاذ المكي اقلاينة

- العقل العربي وإعادة التشكيل

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور عبد الرحمن الطريري

- إنفاق العفو في الإسلام بين النظرية والتطبيق

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور يوسف إبراهيم يوسف

- أسباب ورود الحديث

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد رأفت سعيد

- في الغزو الفكري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أحمد عبد الرحيم السايح

- قيم المجتمع الإسلامي من منظور تاريخي (الجزء الأول)+(الجزء الثاني)

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور أكرم ضياء العمري

- فقه تغيير المنكر

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ـ الدكتور محمد توفيق محمد سعد

- في شرف العربية

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر ، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور إبراهيم السامرائي

- المنهج النبوي والتغيير الحضاري

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الأستاذ برغوث عبد العزيز بن مبارك

- الإسلام وصراع الحضارات

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد القديدي

- رؤية إسلامية في قضايا معاصرة

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور عماد الدين خليل

- المستقبل للإسلام

« طبعة أولى » + طبعة خاصة بمصر، وطبعة خاصة بالمغرب ـ الدكتور أحمد علي الإمام

قال تعالى :

﴿ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ
أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ
﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ ۗ
قُلْ إِنَّ ٱلْخَٰسِرِينَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ أَلَا
ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٥﴾ ﴾

(الزمر : ١١ – ١٥)

تقـــــديم

بقلم : عمـر عبيـد حسنــه

الحـمـد لله، الذي شـرع لنا من الدين: ﴿ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ (الشورى: ١٣).

والصلاة والسلام على خاتم النبيين، الذي ورث الكتاب، وخلَّص إرث النبوة مما لحق به من الشرك، والتحريف، والتأويل، والمغالاة، والانتحال، حتى لا تكون فتنة، ويكون الدين كله خالصاً لله: ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ ﴾ (الزمر: ٣)، وبعد:

فهذا كتاب الأمة السابع والأربعون: « التوحيد والوساطة في التربية الدعوية »، الجزء الأول، للأستاذ فريد الأنصاري، أستاذ الدراسات الإسلامية بكلية الآداب والعلوم الإنسانية في مكناس، المغرب، في سلسلة « كتاب الأمة »، التي يصدرها مركز البحوث والدراسات، بوزارة الأوقاف والشؤون

الإسلامية، في دولة قطر، مساهمة في إعادة البناء، واسترداد دور الأمة المسلمة، في الشهادة على الناس، والقيادة لهم إلى الخير، وإخراجهم من الكفر إلى الإيمان.. من الشرك إلى التوحيد.. من عبادة العباد، إلى عباد الله الواحد.. ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام.. ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة.. ذلك أن استرداد دور الأمة، وإحياء فاعليتها، لتصبح قادرة على استثمار طاقاتها الروحية، والذهنية، والمادية، لتقلع من جديد، لا يتأتى إلا باكتشاف مواقع الخلل، وتحديد مواطن القصور، ومعرفة أسباب التقصير، في ضوء سنن الله التي شرعها في الأنفس والآفاق، والتي تمثل أقدار الله، ليحسن المسلم التعامل معها، ويمتلك القدرة على تسخيرها، ومغالبة قَدَر بقَدَر، والفرار من قَدَر إلى قَدَر، متمثلاً قولة ابن القيم رحمه الله: «ليس الرجل الذي يستسلم للقدر، بل الذي يحارب القدر بقدر أحب إلى الله».

إلا أن عملية التقويم، والنقد، والتصويب، والمراجعة، بالشكل المنهجي الصحيح، ما تزال غائبة منذ أبد بعيد، والأسئلة الكبيرة، ما تزال معلقة بدون إجابات شافية، ولعل في مقدمة هذه الأسئلة، السؤال الكبير، والمطروح باستمرار وبإلحاح: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ ولماذا -ونحن نمتلك القيم السماوية الخالدة، المجردة عن حدود الزمان والمكان، والتي أنتجت الأجيال، التي حملت الرحمة إلى العالمين- توقفنا عن إنتاج النماذج المأمولة، والقرآن هو القرآن، والبيان النبوي في السُّنَّة والسيرة هو البيان؟

إن مجرد الجواب، بأن سبب ذلك كله، هو البعد عن الإسلام، على الرغم من صحته، جواب فيه الكثير من التبسيط، والتهوين، وحتى السذاجة أحياناً، لأنه سوف يسلمنا إلى سؤال كبير آخر، أو سلسلة من الأسئلة الأخرى التي لا تتوقف: ولماذا بَعدنا عن الإسلام، وانسلخنا عن الالتزام بقيمه؟ وعَجَزنا عن التعامل مع مصادره في الكتاب والسُّنَّة، لتربية وإنتاج النماذج المأمولة؟

وأعتقد أن الإجابة عن هذا السؤال، هو الذي ما يزال يمثل الإشكالية الكبيرة، من الناحية الثقافية والحضارية، في حياة المسلمين اليوم، وأن الإجابة الدقيقة تتطلب دراسات سننية، تتطلب بدورها فقهاً في الحركة التاريخية، وقوانين الاجتماع البشري.. تتطلب التعرف على: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب:٣٨)، والتمثل لقوله تعالى: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر:٤٣).

إن فقه السنن، هو الذي يمثل سبيل الخروج من الحال الذي نحن عليه، ذلك أن الحال الذي صرنا إليه، لم ينشأ مصادفة، وبدون أسباب ومقدمات، إنما توضع نتيجة لسنن فاعلة في الحياة، ولم يحصل عبثاً.. وهذه السنن، لابد من إدراكها ابتداءً -أي أن الحياة لم تخلق عبثاً، وإنما تنتظمها سنن وقوانين- حتى نتمكن من تحديد الإصابة بدقة، ومن ثم فقه السنن، التي تمثل سبيل الخروج.. ونعني بفقه السنن: القدرة على استشراف

التاريخ، واستيعاب الواقع، وإبصار المستقبل، في ضوء هدايات الوحي، ومدارك العقل.

صحيح، إن بُعدنا عن الإسلام، كان وراء جميع ألوان المعاناة، التي نعيشها، وأننا لا نستطيع الخروج ما لم ندرك، ونجيب على السؤال: لماذا بعدنا؟ ونستقرئ الأسباب بدقة، ونبدأ بمعالجة الأسباب في ضوء السنن، التي شرعها الله، ولا نقتصر على معالجة الآثار، التي ترتبت على ذلك، كما هو الحال في كثير من معالجتنا.

وبالإمكان القول هنا: إن الإجابة عن السؤال الكبير الثاني: كيف نرى طريق العودة؟ وكيف نضع الأوعية الشرعية لحركة الأمة، حتى تستطيع النهوض، وإعادة البناء، في ضوء سنن الله تعالى؟ لا تَقِلُّ أهمية عن الإجابة على السؤال الأول: لماذا صرنا إلى ما نحن فيه؟ بل قد يكون الأمران متلازمين، ذلك أن القول: بأن الحل هو العودة للإسلام، أو أن الإسلام هو الحل، دون تحديد الكيفيات، ووضع الأوعية والآليات لهذه العودة، أو للوصول إلى هذا الحل، هو نوع من التبسيط، الذي يخشى منه، أو بعبارة أدق: يخشى معه من تكريس حالة العجز، واستمرارها، وتراجع الثقة بقيمة وقدرة هذه الشعارات -إن لم تقترن بما تقتضي من فقه سنن النهوض- على تقديم الحل فعلاً. ذلك أن طرح الشعار، دون القدرة على تنزيله على الواقع، وتحويله إلى ممارسة، وفعل، وشعيرة، هو إجهاض للشعار، ومحاصرة له في نهاية المطاف، وإيهام بعدم واقعيته.

وهنا قضية، لعل إيضاحها، وفك الالتباس الذي يكتنفها، وتحرير معناها، من الأهمية بمكان، وهي أن النقد، والتقويم، والمراجعة، وتحديد مواطن التحريف، والقصور، والمغالاة، وكشف الخلل والاعوجاج في الفهم، والخطأ في الاجتهاد، إنما ينصرف للتدين، للتطبيق، والممارسة، وليس لقيم الدين نفسها، ذلك أن الخلط بين الأمرين، يترتب عليه فساد عريض، واختلال في معادلة التدين نفسها.

ولعلنا نقول: إن التقويم، والمراجعة، والنقد، والتصويب لفهوم الناس لقيم الدين، وممارساتهم، أثناء تنزيله على الواقع، هو حماية لقيم الدين المعصومة نفسها، من أن تتحول، أو تلتبس بمفاهيم بشرية، يجري عليها الهوى والتعصب، والخطأ والصواب.

وبالإمكان القول: إن هذا الالتباس، بين قيم الدين المعصومة، وفهم الناس للدين (التدين)، الذي يجري عليه الخطأ والصواب، ترك جواً من الإرهاب الفكري، أو إن شئت فقل: الإرهاب الديني المقدس، وكرس الكثير من الأخطاء، وحال دون طلاقة الفكر، في الاجتهاد، والنقد، والتصويب، والتقويم، والمراجعة، ظناً ووهماً أن نقد الاجتهاد، أو نقد فهوم الناس، أو نقد بعض صور التدين، والممارسة، هو نقد لقيم الدين نفسه، وأصبحت الفكرة الشائعة: أن نقد بعض ممارسات الأشخاص، وفهومهم للدين، هو نقد لما يحملون من قيم ومبادئ معصومة، وأن هذا النقد قد يوصل صاحبه إلى الكفر، حيث الزعم بأن الذي ينتقد حملة الشريعة، ينتقد الشريعة، والذي ينتقد الشريعة، يكفر بِمُنزلها.

وهكذا يسيطر جو من الإرهاب الفكري، يشل التفكير، ويحاصره، ويحرم عمليات التقويم، والنقد، والمراجعة، وبذلك يكرس الانحراف، وتعطل حِسبة الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، التي بها خيرية الأمة، وامتدادها، وتستمر ممارسة الخلط بين الدين المعصوم، والتدين الذي يجري عليه الخطأ والهوى، والصواب، وتتسع دوائر الانحراف، وتحاصر قيم الدين الخالدة المطلقة، بفهوم البشر النسبية القاصرة، وتنتقل القدسية من قيم الكتاب والسنة، إلى آراء البشر، وتصبح الفهوم البشرية المتفاوتة، هي مصادر الدين والتدين، وبذلك يتفرق أمر الدين، ليصبح أدياناً، وشيعًا، وأحزابًا، كل حزب بما لديهم فرحون، ونقع فيما حذرنا الله منه، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣١ - ٣٢).

إن انتقال القدسية، من قيم الدين، إلى فهوم البشر المتفاوتة، هو تفريق لأمر الدين، وتمزيق للأمة، وقضاء على مصادر وحدتها الجامعة.. ولعل من بعض آثار ذلك السلبية، ما ذهبت إليه جماهير الأمة، من المقلدة، وبعض حملة الفقه، وليس الفقهاء، عندما يطلب إليهم الالتزام بأدلة الكتاب والسنة، واعتمادها مصدراً للتدين، وليس فهوم، واجتهادات البشر، التي تخطئ، وتصيب، من أن مصدر هذه الفهوم، والمذاهب، هو الكتاب والسنة، وأن الالتزام بها، والدفاع عنها، والاستسلام لها، هو التزام بالكتاب والسنة، وبذلك يصبح للمسلمين أكثر من كتاب، ومن سنة، حيث تتعدد صور الاجتهاد، والتدين، بتعدد المذاهب وقدرات البشر.

فالاجتهاد في التطبيق، جهد بشري لفهم الدليل، في التنزيل على محله، وليس دليلاً مستقلاً بحد ذاته.. وما أزال أذكر أنني عندما طلبت دليلاً من الكتاب والسنة، من أحد حملة الفقه، على مسألة اجتهادية، وأعياه ذلك، قال: إنه اجتهادي، وفهمي، وكوني أقول بهذا، هو الدليل!

وقد تكون معضلة البشر في التعامل مع نصوص الدين تاريخيًا، كامنة في أنماط التدين المعوج، في فهوم البشر، وليست في الدين نفسه.. تلك الفهوم التي تحولت شيئًا فشيئًا، لتصير هي الدين، ويصير الإنسان، أو رجل الدين هو المتحدث باسم الله، وتتخذ الأحبار والرهبان، على نقصهم، وضعفهم، وقصورهم، ونسبيتهم، وخضوعهم لظروف الزمان والمكان، أربابًا من دون الله.

ولعل هذه القضية، قضية اتخاذ الآلهة من دون الله، واتخاذ الأرباب، هي التي ألحقت الفساد الكبير في تدين الأمم السابقة على الإسلام، كما أن قضية توحيد الألوهية، والحيلولة دون اتخاذ الأرباب ، هي قضية النبوات الأولى، وقضية النبوة الآخرة.

وفي تقديري أن إفراد القرآن الكريم، لمساحات تعبيرية كبيرة، وبأكثر من أسلوب، وطريقة أداء، لذكر قصص الأنبياء مع أقوامهم، وصراعهم مع الأرباب، بمختلف أشكالها، وذكر علل التدين، التي دخلت على إرث النبوة، هو لون من التحصين الديني، والتوعية الثقافية، وتحقيق الاعتبار لأمة

الرسالة الخاتمة، ذلك أن اتخاذ الأرباب من دون الله، والاعتقاد بأنها تقرب إلى الله، هي قابليات مركوزة في نفوس البشر: ﴿ ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ﴾(الأعراف:١٣٨)، تقتضي قدراً كبيراً من اليقظة، والحذر الدائم، للحيلولة دون الانحراف.. وأن هذه القابليات، موجودة في أمة الرسالة الخاتمة.. لذلك يمكن بغفلة منها عن قيم الدين المعصومة، أن تقع في إصابات وعلل التدين، التي وقعت فيها الأمم السابقة.

ولولا أن هذه القابليات، قائمة وموجودة فعلاً، لما كان للتحذير منها أي فائدة، ولكان ذكر علل التدين في قصص القرآن، ومرويات السنة، لا قيمة عملية له، ولكان القرآن كتاب تاريخ، انتهت صلاحيته في العصور الماضية.. ولولا أن هذه الإصابات التدينية، تتكرر، وتخضع لسنن لا تتبدل ولا تتحول، لكان ادعاء الخلود لآيات القرآن، دعوى بلا دليل. ذلك أن الخلود يعني فيما يعني، تجرد القرآن، وبيانه النبوي، عن حدود الزمان والمكان، وامتداد فاعلية السنن وفعلها.. إن السنن التي ألحقت النقص والفساد بالأمم السابقة، يمكن إذا توفرت، أن تلحق الفساد بتدين الأمة المسلمة أيضاً، وأن القصص التي يذكرها القرآن لفساد التدين، دليل على نفاذ السنن، ومضيها في البشر، أينما كانوا، وحيثما كانوا، ومهما كانت عقائدهم الأصلية، لأن الله سبحانه لا يحابي أحداً.

ولم يعد موضعًا للشك أمام المتأمل والمستقرئ لأحوال البشر، في عصورهم المختلفة والمتطاولة، أن التدين فطرة بشرية، وحاجة عضوية ونفسية،

وأنه إذا لم يأخذ طريقه الصحيح إلى توحيد الألوهية والربوبية، فسوف ينتهي إلى الضلال.. والذي لا يكون عبداً لله، فهو يقيناً عبد لسواه من الأرباب، مهما ادعى غير ذلك، أو زعم إنكار الدين، قال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١).. لذلك، فالذين ينكرون الإله، ويكفرون به، ظناً منهم أنهم تحرروا من الدين، إنما يقعون في أسوأ وأردأ ألوان التدين الباطل، وهو اتخاذ الأرباب من البشر.

والقرآن الكريم، وهو مصدر التوحيد الأول، ليس كتاب نخبة فقط، وإنما هو كتاب أمة، وهو ميسر للذكر.. والتيسير للذكر هنا، لا يعني أبداً التبسيط والسذاجة في الفهم، بقدر ما يعني بأن التأمل في آياته، وما شرعه الله فيه من السنن، التي خضعت لها الأمم السابقة، وذكر هذه السنن، واستذكارها، أمر ميسر لكل من أقبل عليه.

إن بيان علل تدين الأمم السابقة، وما خضعت إليه من سنن، لابد من استيعابها، لتصبح ثقافة شاملة لأبناء أمة الرسالة الخاتمة، فيأخذوا حذرهم، ويتحققوا بالاعتبار، والوقاية، والهداية.

فالآية: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾، تكررت (٤) مرات في سورة القمر، وجاءت في كل مرة تعقيباً على ما ذكر من قصص الأنبياء مع أقوامهم، وإصابات التدين، وأهمية إدراك السنن، التي حكمت مسيرة النبوة، وكيف أن إدراكها ميسر، إذا توفرت عزيمة الاطلاع، والادّكار، والاتقاء.

وليس تيسير القرآن للذكر -فيما أرى- هو فهم المعاني القريبة بدون صعوبة، وهذا جزء من المقصود، أما المقصد الأساس، فهو تيسير إدراك سنن السقوط والنهوض، من خلال تاريخ النبوة، الذي لم يخرج عن الصراع، بين الإيمان والكفر، بين التوحيد والشرك، بين عبودية الإنسان لله الواحد الأحد، التي تعني المساواة بين بني البشر، وبين تأله الإنسان، الذي ينتهي إلى تسلط الإنسان على الإنسان.

نعود إلى القول: إن الإصابات من الخروج، والانحراف، والانتحال، والتأويل، والمغالاة، وسائر العلل، في تاريخ النبوة الطويل، إنما لحق بالتدين، من جهة التطبيق والممارسة، الأمر الذي حمل كثيراً من الفرق، والأديان، إلى تأويل نصوص الدين، وتحريفها، لتوافق أهواءهم، وليصبح النص خاضعًا للممارسة، وليكيف في ضوئها، وبذلك يصبح النص الديني تابعًا، بدل أن يكون متبوعًا، فينمو التدين المغشوش، ويسود فقه الحيَل، ويوظِّف الدين لأغراض الناس وأهوائهم، ويستخدم مسوغًا لتصرفاتهم، وتصنع الفتاوى وتجهز، ويلوىٰ عنق الأدلة، لتسويغ مسالك الكبراء والملأ من القوم، ولا مانع أن تصنع فتاوى مناقضة لها، إذا اقتضت الحاجة، لإعطاء المشروعية لهذا العمل أو ذاك، وبخاصة لأصحاب السلطان، من المال والجاه.. وهنا يبرز الإنسان الذي يكون إلهه هواه، وتنقلب المعادلة، ويصير ما جاء به الرسول ﷺ تابعًا لأهواء البشر، بينما الوضع السليم للتدين، الانضباط بقول الرسول ﷺ: **«لا يؤمن أحدُكُم حتى يكون هواه تَبَعًا لما جئتُ به»** (رواه البغوي في

شرح السنة، وقال النووي في أربعينه: حديث صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح).

ذلك أن الخطورة كل الخطورة، في مجال التدين، أن يكون ما جاء به الرسول ﷺ تابعًا لأهوائنا، وبذلك تقوم مذاهب، وفرق، وأديان، تنحرف شيئًا فشيئًا في تدينها، حتى تصل إلى مرحلة لا علاقة لها بدين الله، وإن ادعت أن ما ذهبت إليه هو دين الله، وأعلنت أنها تستمد مشروعيتها من الدين.

وفي تقديري أن خلود الإسلام، وامتداده، إنما تحقق من خلال تعهد الله بحماية نصوص الدين في الكتاب والسنة، وحفظها، وصحتها، قال تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر: ٩)، وقال: ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ ﴾ (القيامة: ١٦-١٩).

فَحِفْظُ اللهِ للقرآن، والبيان النبوي -الذي تحقق من خلال عزمات البشر - ولا يزال - حال دون تطرق التحريف، والتبديل، والعبث بالنص الديني، الذي هو مصدر التدين، ومعياره.. وأن الإصابات التي لحقت بالتدين، لم تتمكن من العدوان على النص الخالد، الذي استمر - إلى جانب الطائفة القائمة على الحق، المستمرة حتى يوم القيامة- شاهد إدانة، لكل انحراف، وتأويل باطل، ومنبعًا وحيدًا للتلقي، ومعيارًا متوحدًا للتجديد.

ولعلنا نقول هنا: إن الحماية لم تقتصر على النص الديني، وإنما امتدت إلى حماية الممارسة أيضاً، من خلال السيرة والسنة.. ذلك أن السنة والسيرة هما معيار الممارسة والتطبيق.. وبذلك لم يُترك الفهم، والتطبيق، والتنزيل، على الواقع، لرؤى واجتهادات البشر، وإنما كانت السيرة والسنة، معيار الفهم والتصويب، والإطار المرجعي له.. وتجسيد ذلك المستمر، في الطائفة القائمة على الحق، التي لا يضرها من خالفها، حتى يأتي أمر الله، مصداقًا لقوله عليه السلام: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»** (رواه مسلم).

لذلك يمكن القول بكل الاطمئنان: بأن الرسول ﷺ تركنا على بيضاء نقية، ليلها كنهارها، سواء في نصوص الدين المحفوظة الواضحة، الميسرة للذكر، أو في طريق التدين أيضًا، أي في الدين والتدين معًا.. في القرآن، والسنة، والسيرة، وسنة الخلفاء الراشدين.

ومن هنا، نتبين مدى خطورة تجاوز البيان النبوي، أو تجاوز السنة، أو تجاوز السيرة، وصحيح المأثور بعامة، حيث يفتح الباب على مصراعيه، للرأي، والهوى، والتأويل، لكل أنماط وأشكال التدين، والتطبيق، الذي به يكون تفريق الدين، بحيث يصبح لكل إنسان كتاب وسُنة -كما أسلفنا- إذا افتقدت المرجعية، التي يبينها المأثور، وتمثلها تطبيقات الخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

إن فهم الرسول ﷺ، وتنزيله لنصوص الدين على الواقع، من خلال

إن فهم الرسول ﷺ، وتنزيله لنصوص الدين على الواقع، من خلال خير القرون، هو الذي يمثل الإطار المرجعي لفهم كل مسلم، في كل عصر.. وإذا كان الخلود يقتضي أن نمتد بالنص القرآني، لتنزيله على مشكلات كل عصر، بحسب ظروفه، وإمكاناته، وتعدية الرؤية، فإن هذا الامتداد لا يجوز أن يعود بالنقض أو الإلغاء للبيان النبوي، وفهم خير القرون.. ويبقى المطلوب في الاجتهاد والامتداد في التطبيق، امتلاك القدرة على وضع الحاضر في موضعه، الملائم والمناسب للحال الذي هو عليه، من مسيرة السيرة، وفهم خير القرون.

وقضية الخيرية، التي قررها وشهد بها الرسول ﷺ، للقرن الأول، ثم الذي يليه، ثم الذي يليه، ومن ثَمَّ تكون الإصابات، ويكون التصويب والتجديد، قضية تقتضي بعض التوقف.

إن شهادة الرسول ﷺ للقرون الثلاثة الأولى، بأنها خير القرون على الإطلاق، سواء في ذلك القرن الأول، الذي هو خيرها، والذي شهد نزول نصوص الدين، وشهد تنزيلها على الواقع «ممارسة التدين»، على عين الوحي، أو تلك التي امتدت فيها ممارسة التدين، بعد توقف الوحي، وغياب المعصوم، تعني فيما تعني، أنه اجتمع لهذه القرون، وتحقق في أهلها من الصفات، والمزايا، والخصائص، ما لن يتوفر لغيرها.. وسواء قلنا: إن ذلك في مساحة الخير، أو عموم الخير، في هذه القرون، أو في النماذج المتفردة، التي تمثلت الإسلام على شكل يبقيها في محل الأسوة والاقتداء، حيث بدأ الخير،

فيما بعد هذه القرون، يتضاءل على مستوى الفرد والمجتمع، لكنه لم ينقطع أبداً في هذه الأمة، لأنها كالغيث، لا يُعرف الخير في أوله أو في آخره، كما دلت على ذلك بعض الآثار.

إن الشمولية في الخيرية وعمومها في هذه القرون، يجعلها في محل الأسوة والاقتداء، في مجال ممارسة التدين، والتطبيق السليم، الذي منحها ووسمها بتلك الخيرية.. إنها الخيرية الشاملة شمول الإسلام، لجميع جوانب الحياة، وآفاقها، وأبعادها، ذات العطاء المتعدد والمتجدد.

ولا شك عندي، أن بحوث العلماء، ودراساتهم التي انصرفت إلى أبعاد استمرار الخيرية، وخلودها في الأمة المسلمة، أمر طيب ومهم، ومن بشائر الخير الدالة على الامتداد، والخلود، والاستمرار، لكن الجانب الأهم في تقديري: أن تخضع هذه القرون، المشهود لها بالخيرية، في صحة وصدق تدينها، وممارستها للدين، أن تخضع للتحليل والدراسة، واستخلاص الصفات والخصائص التي كانت سبب خيريتها، ومحاولة تجريدها من حدود الزمان والمكان والأشخاص، لتوليدها في كل زمان ومكان، وجعلها أهدافاً ومعايير وركائز تربوية، في كل عمل دعوي تربوي، لتصبح سلم القيم، ومدارج الكمال، وسبيل الخيرية.. كما لابد أن تدرس عوامل الخلل والانتقاص، الذي دخل على الأمة المسلمة، بعد هذه القرون، فانكمشت خيريتها.

وأعتقد أنه ليس المقصود، من الناحية التربوية، ولا أن ذلك من مقاصد

الحديث، حصر الخيرية في هذه القرون، وقصرها عليها، لتصبح حكرًا لها، دون غيرها من سائر القرون، لأن ذلك يناقض طبيعة الإسلام، ودعوته الممتدة وخلوده، ووراثته للنبوة، وإنما المقصود فيما أرى، والله أعلم، أن يكون التدين في هذه القرون، وفهم الدين، الذي منحت بسببه شهادة الرسول ﷺ بالخيرية، هو سبيل المؤمنين إلى التدين الصحيح الخالص.. وإلا، فما معنى الشهادة لها، من الناحية العملية، إذا لم يكن المسلم في كل زمان قادرًا على المحاولة للوصول إلى تلك الخيرية، وتمثلها، والتحقق بها؟!

إن اشتغالنا بأن هذه القرون هي الخير، وهي الأعلى، وأن ما تلاها هو الأدنى، إذا لم نلحظ فيه ضرورة دراسة الخصائص، التي رشحتها للخيرية، وحاولنا الارتقاء إلى مستواها، يصبح لا معنى ولا مغزى له، من الناحية التربوية، والدعوية.. وكم كان الإنسان يتمنى أن يجد كتبًا ودراسات، متخصصة في شعب علوم الحياة المتعددة، تستطيع أن توظف المعارف جميعها، بحيث تعرض لخصائص هذه القرون، وفق خطة منهجية، وتضع دليل العمل، دليل التدين السليم، للانتساب إليها، وطي مسافة الزمن، للحصول على الخيرية والثواب، الذي شهد لها به الرسول ﷺ. وإذا لم تكن حركة هذه القرون، الفكرية، والعملية، والاجتماعية، والسياسية، محل دراسة، وتحليل، واستنتاج، وعطاء، للأجيال القادمة، بحيث تمنحها الرؤية السليمة، للحياة الخيّرة، فنخشى أن نقول: إننا لم ندرك بعد الأبعاد الكاملة، والمقاصد الأساسية لشهادة الرسول ﷺ لهذه القرون.

إن دراسة الشخصيات العظيمة والمتميزة، والفترات الزمنية المتألقة، ذات الإنجاز الحضاري المقدور، في حياة الأمم، وإلقاء الأضواء على جوانبها المختلفة، لتمثل دلائل عمل، ووسائل تنوير، وقيادات هدى، ومناهج ارتقاء، أصبحت علومًا لها مقوماتها، وطرائقها، وتخصصاتها، ومعارفها.. لقد جردت المعاني العظيمة من أشخاصها، وزمانها، ومكانها، وأعيدت جدولتها، كما أعيد بناؤها تربويًا، بحسب أولويتها، لتكوّن المناخ الثقافي، والتربوي، لحركة الأمة، في مجالاتها المتعددة، ولتشكل نقاط ارتكاز حضارية، تحول دون الاهتزاز والذوبان.

ونحن نمتلك هذه الكنوز العظيمة، لحركة المجتمع الإسلامي: ثلاثة قرون، مشهود لها من المعصوم، ومع ذلك نعيش حالة التخاذل الفكري والديني، ونعجز عن امتلاك القدرة على وضعها في المكان المناسب، في مناهجنا التربوية، والتعليمية، ونحاول قراءتها، وتفسيرها من خلال حالة التخلف، وفلسفة التخاذل، التي نعيشها، ونرفعها كشعارات، تصبح على أيدينا عاجزة، عن تغيير الواقع الذي نعيش.

إن غياب المدلول العملي للشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، والترجمة الواقعية لها، وتحويلها من فكر إلى فعل، ومن نظرية إلى تطبيق، ومن علم إلى ثقافة، ومن حمل للفقه إلى فقه، يعتبر من الناحية الثقافية، من أخطر ما تصاب به الأمم في حياتها، حيث تعيش حالة من الضلال، والركود، والاستنقاع الحضاري، والاستلاب الثقافي الذاتي، لا تحسد عليها،

وتصبح مهيأة لقبول ما يلقى إليها من خصومها، وتبدأ مرحلة السقوط، وتأتي العملة الرديئة، لتطرد العملة الجيدة من السوق، وتحل محلها، وبخاصة في حالات الانبهار بالإنجاز والغلبة المادية، حيث يغيب الوعي، وتبدأ الأمة بالتنازل عن مفاهيمها، وشعاراتها، لصالح «الآخر».

وقد تكون المشكلة الأخطر، أن تنشأ في الأمة طبقة من الكُتّاب والمفكرين، والصحفيين، يدّعون التنوير والتحرر، تمارس العمالة الفكرية، وتقوم بنوع من المقاربة الثقافية والحضارية، بين مفاهيمها، وشعاراتها، ومصطلحاتها، ومفاهيم حضارة وثقافة «الآخر»، فتتحول المفاهيم والمصطلحات والشعارات، التي الأصل فيها، أن تشكل الحصون الثقافية، والقسمات الحضارية للأمة، إلى معابر لمفاهيم ومصطلحات «الآخر»، وبذلك تنخلع الأمة من شخصيتها الثقافية، وتدخل مرحلة التيه والضلال، فلا هي متمثلة لثقافتها، ومفاهيمها، وقيمها، ولا هي مقبولة، بطبيعة تاريخها الثقافي، وقيمها الدينية، للدخول في ثقافة «الآخر»، إلا بحدود ما يُحَقِّق العمالة الثقافية، ويُمكِّن من الاختراق الثقافي.. ولعل في الحال التي انتهت إليها بعض الدول الإسلامية، التي أعلنت العلمانية، والالتحاق بالغرب، والالتزام بقيمه، والانسلاخ من الإسلام، خير عبرة، فلم تبق مسلمة كما ينبغي، ولم تصبح أوربية غربية خالصة.

ومن جانب آخر، فإن اغتيال المدلول الحقيقي للمفاهيم والمصطلحات، وتفريغها من مضمونها، والتعامل معها من خلال حالة التخلف والتخاذل،

والعقلية الذرائعية، التي تسيطر على الأمة، في حالات الركود، يؤدي إلى محاصرة هذه المصطلحات والمفاهيم، ويخرجها من دائرة الفاعلية، والانفعال بها، وحسن توظيفها تربوياً، وبذلك تفتقد مدلولاتها الصحيحة، وتصبح عاجزة عن التغيير، وإعادة البناء.

لذلك نرى أن قضية التوحيد والعبودية لله، التي كانت همَّ الرسالات السماوية تاريخياً، وكانت ميدان الصراع الحقيقي، لما يترتب عليها من آثار على مستوى الفرد، والمجتمع، والأمة، والدولة، أصبحت، في مراحل الجمود والتخلف، والتقليد، مجرد شعار، يصعب تمييز الذي يرفعه كثيراً، عن غيره، الذي لا يؤمن به.

وبمعنى آخـــر، نرى أن شــــهــادة (لا إله إلا الله)، التي تعني هدم العبوديات، ونسخ الآلهة، وإثبات التوحيد والوحدانية، والتي كانت تعني التغيير، والتحول، والانخلاع من حال، لها مواصفاتها، ومعاييرها، ومفاهيمها، وعبودياتها، إلى حالة التحرر والانعتاق، واسترداد إنسانية الإنسان، ونسخ تسلط الإنسان على الإنسان، لذلك كان الناطق بها، المدرك لأبعادها ومدلولاتها، تتغير مفاهيمه، كما يتغير سلوكه، وعلاقاته، ويعيش ثمراتها في النفس والمجتمع.. وهي الشعيرة التي من السنة أن يُنَادىٰ بها في أذن المولود، فور استقباله للدنيا، ويستمر الإعلان والأذان بها من عَلىٰ أعلىٰ مكان، ولا يكتفى بسماعها واستيعابها، وإنما لابد لكل مسلم أن يجيب المؤذن، ويقول مثلما يقول، حتى تتجدد المعاني والمدلولات في نفسه: «**إذا**

سمعتم المؤذن، فقولوا مثلما يقول، ثم صلوا عليَّ... الحديث» (رواه مسلم)، كما أن النطق بها، آخر ما يودع الإنسان به الدنيا، حيث من السُّنة أن يُلَقَّنها في الاحتضار...

هذه الشهادة، الشعيرة، نراها اليوم أصبحت شعارات ترفع، وتكاد تكون عند كثيرين بلا مدلول، إلى درجة يصعب علينا معها تمييز من يرفعها حقيقة، ممن لا يؤمن بها مطلقاً، من حيث السلوك!

إن غياب شعارات الأمة، ومفهوماتها، وقيمها، عن ساحتها الفكرية، وتشكيلها الثقافي، وممارساتها اليومية، يعني أن الأمة دخلت مرحلة التيه والفراغ، الذي يسمح «للآخر» بالامتداد في داخلها، كما أسلفنا.

ولعل من المخاطر الثقافية الكبيرة، أيضاً، الانحراف بالمصطلحات، والمفاهيم، والشعارات، عن مدلولاتها الصحيحة، والخروج بها عما وُضعت له، ليصبح دورها، تبرير وتسويغ حالات الركود، والانسحاب، والإرجاء، والعطالة، وانطفاء الفاعلية.. ومن هنا قلنا: إن القرون المشهود لها بالخيرية، وتألق العطاء، والفاعلية، هي التي تشكل مرجعية الفهم، والتحديد لمدلولات الشعارات، والمفاهيم، والمصطلحات، وترجمتها إلى أفعال، وتجسيدها في واقع الناس.. وأي تفسير يتجاوز ذلك، أو ينقضه، أو يخرج عليه، هو نوع من البدع الفكرية، والمفاهيمية، لابد من مراجعتها، وتقويمها، وتصويبها، في ضوء تلك المرجعية.

وهنا لابد من وقفة بسيطة، لتحرير مفهوم المصدرية والمرجعية، فيما نرى، والله أعلم.. فإذا كان مصدر التشريع، والأحكام، أو القيم بشكل أعم، هو كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ الصحيحة دون غيرهما -لأن الله تعهد بحفظ القرآن، كما تعهد بحفظ البيان، كما أسلفنا، ولأن كل إنسان يؤخذ من كلامه (اجتهاده وفهمه) ويُرَدُّ، إلا صاحب هذا القبر عليه الصلاة والسلام، كما يقول الإمام مالك - فإن اجتهاد وفهم القرون المشهود لها بالخيرية، هو الذي يشكل المرجعية لكل الفهوم الأخرى المتتالية.. ويبقى معيار هذه المرجعية في الفهم، أو معيار الفهم، هو القيم المصدرية في الكتاب والسنة، التي يجب أن تستصحب دائماً، لأنها الحارس الأمين على الاستقامة على النهج.

وفهم خير القرون، الذي يشكل المرجعية، كما أسلفنا، لا يعني قيداً على العقل والاجتهاد، بمقدار ما يعني إطاراً، يحمي من التحريف، والمغالاة، والانتحال، والتأويل الباطل.

وأعتقد أن من أخطر بوادر الخلل، التي دخلت على الأمة، بعد القرون المشهود لها بالخيرية، محاولة التقليل من شأن المرويات، التي تمثل البيان المأمون، وإبعادها عن الساحة الفكرية، وعندها يقول كل من شاء ما شاء، ويذهب بالمعاني القرآنية مذاهب شتى.. ولذلك نرى أن الفرق الضالة والخارجة جميعها، وحتى المذاهب والتيارات المعاصرة، حاولت تقطيع الرؤية الإسلامية، وقراءة الإسلام من خلال أصول مذاهبها، فكان اليسار

الإسلامي، أو الإسلام اليساري، والإسلام الاشتراكي، والإسلام الرأسمالي، وهكذا... حتى تتمكن من الدخول إلى المجتمع الإسلامي.

لقد حاولت معظم الفرق، أن تُسوِّغ مشروعيتها، بنصوص من القرآن، والتأويل لبعض آياته، وفق رؤيتها وفهمها المسبق، وكان لا بد لها من أن ترد الكثير من المرويات، التي تشكل الضوابط المنهجية، للفكر، والمعرفة، والفعل، والتطبيق، والترسانة الثقافية، لحماية فهم الأمة، وامتداد خيريتها.

إن الكثير من مرويات المأثور، الذي رُدَّ، بحجة أنها آحاد تفيد الظن، مع أنها واردة عن المعصوم، وقد ترجمتها القرون المشهود لها بالخيرية، إلى أفعال، والتزمتها في مسالكها... رُدَّ باجتهادات وآراء فردية، وكأن الرأي والاجتهاد الفردي، متواتر يفيد اليقين!!

وأعتقد أن مصطلح خبر الآحاد، وجواز رده، لأنه يفيد علم الظن، قضية لم تطرح في زمن خير القرون، وإنما جاءت متأخرة، فكانت سبيلاً لمحاصرة المرويات ومدلولاتها، وإخراجها من الساحة الفكرية.

كما أن العبث بالمفاهيم، والمصطلحات، لم يقتصر على إلغاء بعض المرويات، التي تتولى بيان الرسول ﷺ للقيم، وكيفيات تنزيلها على الواقع، وإنما تجاوز -عند بعضهم- إلى إلغاء السنة بإطلاق، واعتماد القرآن فقط، بحجة أن نص القرآن متواتر، وأنه تبيان لكل شيء، وأن السنة جاء تدوينها متأخراً، وقد داخلها شيء من الوضع، بسبب الأهواء، ومسايرة السلاطين، والتبس فيها الصحيح بالسقيم، ومعظم مروياتها ضعيف أو موضوع، أو على

خضوع التدوين لأدق الضوابط العلمية.. ومن هنا بدأ الخرق، والخلل الكبير، بل والانحراف الخطير، وأصبح لكل إنسان، حسب فهمه وإدراكه، قرآن وبيان، وألغي من تاريخ الأمة الثقافي والعلمي، الأساس المرجعي، الذي تمثل في السيرة، والخلافة الراشدة، وفهم خير القرون.

ولعل الأخطر من هذا أيضًا، اعتماد بعض المرويات بشكل مستقل، خارج عن وظيفة البيان، وجَعْل السنة حاكمة على القرآن، وناسخه لآياته، وهو النص المتواتر، الذي يفيد علم اليقين، والذي لم يُسمح أثناء نزوله، وكتابته، برواية السنة وتدوينها، حتى لا تختلط بالقرآن، إلا ما كان من إذن خاص لبعض الصحابة، كعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما.

ولعل من الغرائب والمفارقات حقًا، أنه يُحكم على الحديث بأنه شاذ، إذا خالف فيه الثقة من هو أوثق منه، بينما لا يكون شاذًا ولا مردودًا إذا خالف القرآنَ الثابت بالتواتر، بل يكون ناسخًا للحكم الذي نصٌ عليه القرآن، في رأي بعضهم!!

وهكذا يتطور الخلل، ويتسع الخرق، فتنتقل القدسية من القرآن إلى السنة، ويصبح القرآن عند بعضهم للتبرك فقط، ومن ثم تنقل القدسية من القرآن والسنة، إلى أقوال واجتهادات البشر، بحجة أنها مأخوذة من الكتاب والسنة، وتصبح كل آية أو حديث يخالف ما عليه علماؤنا، فهو مؤول أو منسوخ (أبو الحسين الكرخي، المتوفى سنة ٣٤٠هـ).

لذلك يبقى السبيل إلى استعادة العافية، واسترداد الخيرية: تمثل مفاهيم،

ومصطلحات، ومدلولات، ومرتكزات خير القرون، سواءً في مجال المصدرية: الكتاب والسنة، أو في مجال المرجعية (فَهْم خير القرون، المشهود لها من المعصوم).

وبعد:

فهذا الجزء الأول، من الكتاب الذي نقدمه اليوم، عرض للقضية المحورية، التي تعتبر من أخطر القضايا في مجال التحرر من العبوديات، واسترداد إنسانية الإنسان، ونسخ الألوهيات المعاصرة، وإلغاء معابر الشرك والوثنية من النفوس، لتحقق العبودية لله دون سواه.

إنه عرض لقضية التوحيد والوساطة، وهي قضية النبوة الأولى، عبر تاريخ البشرية الطويل، حيث كان الصراع دائمًا متمركزًا حولها، ودائرًا في ميدانها، وقد تتبع الباحث -جزاه الله خيراً- قضية التوحيد، في النبوة الخاتمة، وما اعترى أصحابها من الإصابات، والتشويه، والخلل، من خلال التتبع العلمي الموثق، ليعيد إليها صفاءها ونقاءها، ويعود بالمسلمين إلى الينابيع الأولى، اقتداءً بمجتمع خير القرون، ليعود التوحيد إلى موقعه ومكانه الصحيح، من العقل المسلم، ويكون محور تفكيره، ودليل ممارسته.

لقد وضع الباحث يده على موطن الخلل الحقيقي، وسببه، متتبعًا ذلك ومستشهداً عليه، من خلال جولة تاريخية عريضة، في المدارس، والمذاهب الفكرية، والفقهية، والتربوية، وكان له وقفات طيبة مع تراث رواد تجديد التوحيد، والعودة به إلى نقائه وصفائه، كما ورد في الكتاب والسنة، وطُبق في مجتمع خير القرون.

والكتاب بمجمله، يعتبر إسهامة بارزة، ومحاولة جادة ومنصفة، لإعادة الوعي بقضية التوحيد، وأثرها في النفس والمجتمع، وانعكاساتها، الفكرية، والفقهية، والتربوية، بعد أن كادت تُهَمَّش في حياة كثير من المسلمين، وتنتهي إما إلى ألفاظ وشعارات تردد، وتستدعى لتلقين الأموات، حيث الأمة في حالة احتضار، أو إلى جدل كلامي، وتجريدات ذهنية عقيمة الجدوى، بعيداً عن عطاء الكتاب والسنة، أو الانتقاص من أبعادها الشمولية، في شتى مجالات الحياة، والانكفاء بها، وعزلها عن الأنشطة التربوية، والاجتماعية والاقتصادية... الخ، وتغييب مصطلحات التوحيد، والشرك، والكفر، ومدلولاتها عن حياتنا الثقافية، ومعاهدنا العلمية، بسبب النزوع الجاهلي، وضغوط الثقافات الوافدة، لإخراج المسلمين عن دينهم.

لذلك، فهذا الكتاب، لا يمكن أن تتحقق الغاية المرجوة منه، بمجرد قراءته، واستعراض مسائله، بل لابد له من الدراسة الجادة، واليقظة الكاملة، فلعله يسهم بالإجابة عن أسباب الخلل، الذي نعاني منه، ويضع خطوات في اتجاه العلاج.

والله من وراء القصد.

تمهيـــد

لعله لن يخالفني الكثير، إن قلتُ: إن مجموعة كبيرة، من أمراض العمل الإسلامي، ترجع إلى اختلال المسألة التربوية فيه، من حيث التصور، أو الممارسة، أو هما معًا.

ذلك أن التربية هي الإطار الأساس، الذي يتم داخله تشكيل القيادات، والجنود، على حد سواء، فهي صمام الأمان، الذي يضبط المسيرة الدعوية داخل الصف؛ اصطفاءً واستيعابًا، ثم ترقيةً وتزكيةً، ثم تخريجًا وتأهيلاً.

وقد لاحظنا، أن كثيراً من الخلافات، وكثيراً من الآفات، وكثيراً من التعثرات، الواقعة في العمل الإسلامي، إنما هي انعكاس طبيعي، لخلافات، وآفات، وتعثرات تربوية خاصة. ومن هنا، كان قدر كبير من نجاح مسيرة العمل في مختلف جوانبه، مرتبطًا بشكل مباشر، أو غير مباشر، بما يحققه من نجاح، في المسألة التربوية، تصوراً وممارسة.

ولذلك، وجب على مفكري الدعوة الإسلامية، ومنظريها، تعميق البحث أكثر في المسألة التربوية، وعدم الاكتفاء بالأساليب التلقائية، والممارسة الارتجالية، في رسم معالم المنهج التربوي الدعوي، وتحديد منطلقاته، وأصوله، وضبط قواعده، ومقاصده، وكيفيات تنزيل مقتضياته العملية.

وإسهامًا منا، في بلورة فكر تربوي أكثر نضجًا، قمنا بمحاولة لدراسة أصول التربية الإسلامية، في اتجاه محاولة رسم معالم المنهاج التربوي النبوي، من خلال القرآن الكريم، والسنة المطهرة، وكذا نصوص السيرة النبوية، ثم حاولنا بعد ذلك، استقراء التصورات، والممارسات المندرجة في فقه التربية، عبر أجيال الأمة الإسلامية، استقراءً نقديًا، مُركِّزين على أعلام الفكر التربوي، وأهم مدارسه، قديمًا، وحديثًا، عسى أن نتبين صوراً لإعادة التشكيل التربوي الاجتهادية، الفردية والجماعية، وبعد كل ذلك، تبين لنا أنه رغم كثرة التصورات والمناهج التربوية المقترحة والممارسة، إلا أنها لا تخرج إجمالاً عن نوعيْن أو اتجاهيْن تربوييْن:

اتجاه توحيدي، يحاول استلهام المنهاج النبوي التربوي، بناءً على قواعد الفهم العلمية، ومناهج الاستنباط الشرعية من نصوص القرآن والسنة النبوية، ومحاولة اكتشاف السنن، والقواعد التربوية، من خلال السيرة النبوية، قصد ربط الفرد، ربطًا مباشراً بالله سبحانه وتعالى، عبر مفاهيم الوحي.

واتجاه وساطي، يجمع كل التصورات، والمذاهب التربوية القائمة، على أساس وجود (الوسيط) التربوي، الذي قد يكون (شيخ) مدرسة سلوكية صوفية، أو (شيخ) مدرسة فكرية عقلية.

فريد الأنصاري

الفصل الأول
تحديد المصطلحات مدار البحث

المبحث الأول
في مصطلح التربية

ترجع مادة (ربب) في اللغة، إلى معاني النمو، والإنماء، والعلو، والكثرة، والجمع، والسيادة، وهذه كلها أصلٌ واحد، يدل على الإنماء.

يقول الراغب الأصفهاني : « الرب في الأصل : التربية : وهو إنشاء الشيء حالاً فحالاً، إلى حد التمام، يقال : ربَّه وربَّاه وربَّبَه »[1].

وقال ابن منظور : « السحاب يرُبُّ المطرَ : يجمعه وينميه . . . والمطر يَرُبُّ النباتَ والثرى : ينميه . . . وربَّ المعروفَ والصنيعةَ والنعمةَ، يَرُبُّها ربًّا . . . وربَّبَها : نمَّاها، وزادها، وأتمها، وأصلحها »[2].

وأما (التربية) في التداول الاصطلاحي الدعوي، فهي : تعهد الفرد المسلم، بالتكوين المنتظم، بما يرقيه، في مراتب التدين، تصوراً وممارسة.

(١) المفردات، كتاب الراء (ربب).

(٢) اللسان، مادة (ربب)، انظر أيضًا القاموس المحيط، (ربب).

فالتربية بهذا المعنى، عملية شمولية، نظراً لشمولية أهدافها المرتبطة، بالتدين الإسلامي الشامل، ذلك أن التعبد في الإسلام، غير مختزل فيما يسمى عند الفقهاء بالعبادات المحضة، بل هو متعدد إلى جانب العادات، والمعاملات أيضًا. ومن هنا كانت التربية الإسلامية متعلقة بتصحيح التصورات، ثم تصحيح التعبدات، ثم تصحيح السلوك الاجتماعي، وكل هذا يتطلب توظيف معلومات شتى، لها علاقة بمختلف جوانب الحياة، بصورة أو بأخرى، باعتبارها أدوات إجرائية، تساعد على فهم النصوص الشرعية، وحسن تنزيلها تربوياً، في حياة الفرد والجماعة.

ولبيان المعالجة الشمولية، التي تتم في إطار التربية الإسلامية للإنسان، ننقل كلامًا نفيسًا للأستاذ محمد قطب، يبين ما نهدف إليه، وما نرومه بمصطلح التربية، من حيث هو عملية تنزيلية، يقول حفظه الله: «طريقة الإسلام في التربية، هي معالجة الكائن البشري كله، معالجة شاملة، لا تترك منه شيئًا، ولا تغفل عن شيء؛ جسمه، وعقله، وروحه.. حياته المادية والمعنوية، وكل نشاطه على الأرض.. إنه يأخذ الكائن البشري كله، ويأخذه على ما هو عليه، بفطرته، التي خلقه الله عليها، لا يغفل شيئًا من هذه الفطرة، ولا يفرض عليها شيئًا ليس في تركيبها الأصيل! ويتناول هذه الفطرة في دقة بالغة، فيعالج كل وَتَر منها، وكل نغمة تصدر عن هذا الوتر،

فيضبطها بضبطها الصحيح، وفي الوقت ذاته يعالج الأوتار مجتمعة، لا يعالج كلاً منها على حدة، فتصبح النغمات نشازاً، لا تناسق فيها. ولا يعالج بعضها، ويهمل بعضها الآخر، فتصبح النغمة ناقصة، غير معبرة عن اللحن الجميل المتكامل، الذي يصل في جماله الأخاذ إلى درجة الإبداع».[1]

فالتربية إذن، عملية معقدة، يجب أن يُراعى فيها كل ما يساعد على تَمَثُّل الإسلام في الحياة البشرية، روحياً، وعلمياً، ونفسياً، واجتماعياً، ورياضياً... الخ. ومن الخطأ، قصر التربية على جانب التزكية الروحية دون سواها، أو العكس.



(١) منهج التربية الإسلامية، ١٩.

المبحث الثاني
مصطلح (التوحيد) في سياق الاصطلاح التربوي

يدور معنى مادة (وحد) في اللغة على محور واحد، هو الانفراد والإفراد، جاء في مختار الصحاح: «الوحدة: الانفراد، تقول: رأيته (وَحْدَه)... كأنك قلت: (أَوْحَدْتُه) برؤيتي (إيحاداً)، أي لم أرَ غيره... ويقال: (وَحَّدَهُ) و (أَحَّدَهُ) بتشديد الحاء فيهما، كما يقال: ثَنَّاه وثَلَّثه. ورجلٌ (وَحَدٌ) و (وَحِدٌ) بفتح الحاء وكسرها، و (وَحِيدٌ) أي منفرد. و (تَوَحَّدَ) برأيه، تَفَرَّدَ به»[1].

فالتوحيد إذن هو الإفراد والتفريد.

وأما في سياق الاصطلاح العقدي، فالتوحيد: هو إفراد الله تعالى في ربوبيته، وألوهيته، وإثبات صفاته[2].

وأما التوحيد في سياق الاصطلاح التربوي، فنقصد به: تربية الفرد -بالمعنى السابق للتربية- على أساس استلهام المضمون العقدي للمصطلح، لكن ليس على المستوى التصوري (الكلامي) فحسب، ولكن باستشعاره أيضًا في كل مجالات التدين، حتى يكون الارتباط بالله وحده، حاصلاً لدى المتربي، عند ممارسته التدينية، والحركية على حد سواء. وإنما يحصل

---

(١) مختار الصحاح، مادة (وحد)، انظر أيضًا اللسان، والقاموس، (وحد).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية، ٧٦.

ذلك بجعل النصوص الشرعية (الكتاب والسنة)، المادة المصدرية لكل تصور، أو برنامج تربوي، إذ هي وحدها دون سواها، القناة الطبيعية، التي تربط الفرد بالله، ربطًا مباشرًا، لا أثر فيه لوساطة وسيط، يتدخل بذاته، لتكييف ذلك الاتصال على حسب فهمه العقلي، أو ذوقه الروحي!

فالتربية التوحيدية، عملية تقوم على جعل التوحيد العقدي، شعوراً حاضراً، عند التدين، فهمًا، وتنزيلاً.. فالفهم لا يكون إلا عن الله، وكما أراد الله.. والعمل لا يكون إلا كما أمر الله، ولا يقصد به غير وجه الله.

إن التربية المبنية على أساس التوحيد، بهذا المعنى، هي ترقية الفرد المسلم في مراتب التدين، من خلال تعميق التزامه بمبادئ الإسلام، ومقتضياته العملية، حيث تكون النصوص الشرعية هي بذاتها مادة التربية الأساس، فيكون المتربي حينئذ متعلقًا قلبه وعقله بالله وحده دون سواه. وذلك عين التوحيد، لا أن تكون الترقية التدينية مبنية على أساس عَظَمة فِكْر مُفَكِّر، أو بُطُولية مواقفه السياسية، أو كثرة تضحياته الابتلائية، أو خصوصية أحواله الروحية، وهلم جرًا، فأي عمل تربوي ينحو بالفرد هذا المنحى الأخير، يعد خروجًا عن مبدأ التوحيد، بالمعنى المذكور. وتفصيل ذلك، هو ما سنشرح به المصطلح الثالث بحول الله.

المبحث الثالث

في مصطلح الوساطة

مادة (وسط) في اللغة، تدل على الشيء الواقع بين طَرَفين.

قال الراغب الأصفهاني: « وَسَطُ الشيء: ما له طرفان متساويا القدر. ويقال ذلك في الكمية المتصلة، كالجسم الواحد، إذا قلت: وسَطه صَلْبٌ، وضربتُ وَسَطَ رأسه، بفتح السين. ووسْط بالسكون: يقال في الكمية المنفصلة، كشيء يفصل بين جسميْن، نحو: وسْط القوم كذا »[١].

وفي اللسان: « اعلم أن الوسَط، قد يأتي صفة، وإن كان أصله أن يكون اسمًا، من قوله تعالى وتقدَّس: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ (البقرة:١٤٣)، أي: عدلاً. فهذا تفسير الوسَط وحقيقة معناه، وأنه اسم لما بين طرفيْ الشيء، وهو منه... وأما الوسْط، بسكون السين، فهو ظرف لا اسم، على وزن نظيره في المعنى وهو (بين) »[٢].

والوساطة مصدر لفعل (وَسَطَ)، تقول: « وَسَطَ في حسَبِه وساطَة، وسِطَة »[٣].

---

(١) المفردات، كتاب الواو، مادة (وسط).
(٢) اللسان، مادة (وسط).
(٣) اللسان، مادة (وسط).

وفي القاموس: «الوسيط: المتوسط بين المتخاصمين... وتَوَسَّطَ بينهم، عَمِلَ الوَسَاطَةَ»[1].

وقد عرفت (الوساطة) كمصطلح فلسفي وأدبي في الفكر الغربي، خاصة مع الناقد والمفكر (روني جيرار)[2]، وهي مستمدة من الأصول المسيحية التثليثية. ومعناها كما يقول الدكتور إدريس نقوري: «إنها تقليد، أو محاكاة لنموذج ما، يسعى إلى تحقيق غرض معين، أي رغبة ملحة، يطمح المقلد إلى إشباعها، فهي تقوم على مَدَامِيكَ ثلاثة أساسية: الذات، والوسيط، والموضوع»[3].

وبذلك أضيفت إلى الثنائية: إنسان وحيوان، وإلى أنواع الازدواجيات: خير وشر، حلال وحرام، جميل وقبيح، مَلَك وشيطان... الخ، رؤية مثلثة يحتل فيها الوسيط، مركز الصدارة، ويتمتع بسلطة قوية ذات تأثير، ونفوذ كبيرين على الذات، وعلى الموضوع في آن واحد»[4].

ويقول أيضًا: «إن الإشكال الكبير، الذي يواجه نظرية الوساطة هو علاقاتها بالوسطيَّة. فمن المؤكد أن اشتراك النظرية والمذهب في الجذر

---

(١) القاموس المحيط، مادة (وسط).

(٢) نظرية الوساطة في الفكر والفن،١٤، للدكتور إدريس نقوري، وقد اقتبسها المؤلف المذكور ليطبقها على التراث الإسلامي مع توسيع معناها.

(٣) المصدر السابق، ٦٠.

(٤) المصدر السابق، ٦٩.

اللغوي، لا يعني البتة الاتفاق في الدلالة، أو حتى في الحقل المفهومي والمعرفي»[١].

والوساطة بهذا المعنى، قد تظهر في المجال التربوي الإسلامي، إذا انحرفت التربية عن مدار (التوحيد)، فتكون التربية الوساطية، إذن، هي: ترقية الفرد في مراتب التدين، لا من خلال ذات النصوص الشرعية، ولكن من خلال ذات (الوسيط).. فيكون المتربي بهذا المنهج، متديناً بالإسلام، كما فهمه الوسيط، أو كما التزمه، وليس بالضرورة كما هو في ذاته.

والوساطة في المجال التربوي الإسلامي، نوعان:

(أ) **الوساطة الروحية**: وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الروحي، أي الشيخ الصوفي، أو شيخ الطريقة، واضع الأوراد، وصاحب الأحوال والمقامات، الذي يتدين مريدوه بواسطة أوراده، وأحواله، ويسعون لاكتساب مقاماته، باعتباره (الشيخ الكامل) و(القطب الرباني). فالأفراد السالكون على طريقته، المتربون على يده، كلهم نمط واحد، ورغبة واحدة، يتوسطون إلى رضى الله تعالى، بمحاكاة صورة الشيخ، المطبوعة في أذهانهم وأعمالهم.

---

(١) المصدر السابق، ٦٤.

(ب) **الوساطة الفكرية**: وهي التربية القائمة على أساس الوسيط الفكري، أي الأستاذ المفكر، أو الكتاب المعتمد، ذلك أنه من السهولة بمكان، ملاحظة ظاهرة الارتباط في مجال التدين، وسط الحركات الإسلامية، بشخصية فكرية معينة، ارتباطًا تربويًا، بحيث ينحو المتربي في تدينه منحى أستاذه، فهمًا للإسلام، وتنزيلاً له، فيقلده في كل ذلك، تقليداً يقوم على التقديس الشعوري، أو اللاشعوري، لأفكاره ومؤلفاته، بحيث لا يكاد يرى الحق إلا فيما قاله أستاذه، ولا يجد الصواب إلا فيما ذهب إليه، فيتشكل في مجموع التلامذة من هذا النوع، نمط تربوي فكري واحد، لا ينظرون إلى الإسلام، ولا يتدينون به، إلا من خلال منظار الوسيط الفكري، المسيطر على عقولهم، ووجدانهم، سيطرة قد تصل إلى نوع من الوثنية، أو الشرك الخفي.

المبحث الرابع
التربية الدعوية بين التوحيد والوساطة

زيادة في توضيح مفهوميْ المصطلحيْن الرئيسيْن في هذا البحث، أعني التوحيد والوساطة، نعقد بينهما مقارنة، لنتبين مدى التقابل الحاصل بينهما من ناحية، واختلاف الآثار التربوبة المترتبة عنهما، في مجال الإنتاج التربوي، من ناحية أخرى.

ويمكن إجمال عناصر المقارنة، في ثلاث قضايا، تتفرع عن كل قضية منها مسائل شتى:

أولاً: التربية بين المصدرية والمرجعية:

من أهم ما يلاحظ ابتداءً، في الفرق بين التربية التوحيدية، والتربية الوساطية، أن التوحيد يقوم في مادته التربوية، على النصوص الشرعية، فنصوص القرآن والسنة النبوية، هي المصادر الوحيدة للعمل التربوي، وهو ما أكده سيد قطب، رحمه الله، في وصفه للجيل القرآني الفريد، جيل الصحابة، حينما قال: «كان النبع الأول، الذي استقى منه ذلك الجيل، هو

نبع القرآن، القرآن وحده. فما كان حديث رسول الله ﷺ، وهديه، إلا أثرًا من آثار ذلك النبع»[1].

فالمصدرية الوحيدة، حينما تكون للقرآن والسنة، في المجال التربوي، تضمن السلامة من كثير من الأمراض التربوية، مما سوف نذكره بحول الله.. فكتاب الله، وسنة نبيه عليه الصلاة والسلام، هما صمام الأمان، الواقي من الضلال، إذا أحسن توظيفهما بضوابطهما الشرعية، وقواعد تفسيرهما وفهمهما.

يقول الرسول ﷺ: «**تركتُ فيكم شيئين، لن تضلوا بعدهما: كتابَ الله، وسنتي، ولن يتفرقا، حتى يَرِدَا عليَّ الحوض**»[2]. نعم لابد من اعتماد منابع أخرى للتربية، تساعد على فهم النصوص الشرعية، وفهم النفس الإنسانية، والمجتمع الإنساني، والواقع المتطور المتجدد... الخ، ولكن ليس باعتبارها مصادر، ولكن فقط باعتبارها مراجع، تساعد على تنزيل الحقائق الإسلامية، المستفادة من النصوص الشرعية، في النفس والمجتمع.

أما التربية الوساطية، فهي على عكس ذلك تمامًا، تعتمد الفكر البشري في تربية الأفراد، باعتباره المنبع الأول للمفاهيم التربوية، سواء كان هذا الفكر

---

(١) معالم في الطريق،١٢.

(٢) أخرجه الحاكم، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم١٧٦١، وصحيح الجامع الصغير (ص ج ص)، ٢٩٣٧.

ذوقًا صوفيًا، أو فهمًا عقليًا. وإن كان ثمة من نصوص شرعية في هذه الوساطات، فلا تبلغ المتلقي في نسقها القرآني، أو الحديثي، ولكن في نسقها الصوفي أو العقلاني .. فالمصدرية ههنا إذن لا تكون للنصوص الشرعية، وإنما لأفهام المصلحين، والمربين، لهذه النصوص، وهذا هو عين الوساطة.

إن الحركة الإسلامية ، حين تقرر برنامجًا تربويًا، تكون مادته هي كتب فلان، أو أذواق فلان، أو أوراده، باعتبارها المنبع الأساس، والمعتمد الأول في بناء الصف الإسلامي، تكون قد أضفت عليها أنواعًا من القداسة الشعورية لدى المتربين، من حيث تدري أو لا تدري .. وينتج عن ذلك، مرض تربوي خطير، يتمثل في نشأة جيل من الملتزمين بالإسلام، ليس كما هو في مصادره بالضرورة، ولكن كما فهمه المفكر الفلاني، أو كما تذوقه الشيخ العلاني! ومن هنا لا يكون الإنتاج التربوي مضمونًا، من حيث الاستمرارية، وعمق التأثير والتأثر، من ناحية، ومن حيث سلامة السير في طريق الالتزام بالإسلام، فهمًا، وتنزيلاً، من ناحية أخرى.

فأما الأول ، فذلك أن الفرد المرتبط بالمفاهيم الإسلامية، كما هي في نسقها الشرعي، هو فرد مرتبط بالله مباشرة، ولذلك فإن نزول هذه المفاهيم على قلبه، باعتبارها لَبِنَات في تكوين شخصيته الإسلامية، يكون عميقًا، بحيث يصعب امحاؤه، واندثاره مع الزمن، ذلك أن للقرآن من حيث هو

معان، ومن حيث هو عبارات معًا، قوة تأثيرية لا يمكن أن توجد في كتب الناس، وأفكارهم، وتذوقاتهم، ومواعظهم، فهو وحده المتعبد بتلاوته، حرفًا، حرفًا: «**لا أقول ﴿آلم﴾ حرف، ولكن أَلِفٌ حرف، ولامٌ حرف، وميم حرف**»[1].

وكذلك حديث الرسول ﷺ، الذي لا عصمة لأي حديث سواه، مبنى ومعنى، فالرسول ﷺ بالإضافة إلى كونه أفصح العرب، فهو وحده الذي لا ينطق عن الهوى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم:٣-٤).

فلنفرض أن الرسالة التربوية، التي نريد تبليغها في جلسة تربوية معينة، هي مفهوم (الخشوع)، فاعتمادنا لغرسه في قلب المؤمن على مادة مرجعية، كأن يكون ذلك من خلال كتاب الرعاية لحقوق الله للحارث المحاسبي، أو إحياء علوم الدين للغزالي، أو مدارج السالكين لابن القيم، أو حتى من خلال موعظة الشيخ الشفهية، أو ورده الذي وضعه للمريدين، فإن كل ذلك سيؤثر لا محالة، لكن التأثير يكون سطحيًا، بحيث يغير من الحال لا من المقام، كما يعبر القوم، أي أنه تأثير ظرفي وشكلي، فهو لا يلامس البنية الداخلية في

---

(١) قال ﷺ، «من قرأ حرفًا من كتاب الله، فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول ﴿آلم﴾ حرف ...». الحديث أخرجه البخاري في التاريخ، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦٤٦٩.

شخصية الفرد، ولا يساهم في تشكيلها البنيوي، ولكن يغير أحوالها الخارجية، فتحدث حالة (الخشوع)، التي لن تستمر طويلاً، ولن يكتسب بها صاحبها (مقام) الخشوع، ولكن (حاله) فقط.

أما إخضاع المتربي، لتكوين تربوي ينتظم النصوص، الواردة في هذا المفهوم ، من القرآن والسنة، وحثه على مساهمته الشخصية في مدارستها، وتنبيهه إلى معانيها العميقة، وربطه مباشرة بذات الآيات المتضمنة لهذا المعنى، من مثل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ (الحديد: ١٦).

قلتُ: أما هذا المنهج، فهو كفيل بتشكيل معنى الخشوع، كجزء من شخصية الفرد الإيمانية، وذلك لما ذكرتُ من خصوصيات النص الشرعي عامة، والنص القرآني بصفة خاصة، ذي الطابع التعبدي المحض، وهذا أضمن لاستمرارية المفهوم التربوي في شعور الفرد، وممارسته.. فهو هنا مرتبط بنص قرآني، وهو نص ثابت لا يتغير، بمعنى أن الفرد كلما تذكر النص، بمناسبة، أو غير مناسبة، إلا وفاض عليه من بركاته الجديدة، ما لم يجده فيه أول مرة، ولا ثاني مرة.. وهكذا.

وأما كل ما عداه من مراجع، فهي مساعدة، تفيد في التأسي والاتعاظ،

الدافع إلى التزام النصوص الشرعية، المصادر الحقيقية للتربية، أما الاقتصار على المراجع فقط ، للوصول إلى الهدف المذكور – ولو تضمنت بعض النصوص الشرعية- فإنه سيربط الفرد بالمرجعية، لا بالمصدرية، في نسقها الخالص . . والمرجعية ههنا بشرية، نسبية ، غير ثابتة، فهي – فضلاً عن احتمالها للخطأ والصواب – تحتمل التغير السلبي، بتغير أصحابها إلى وراء، نحو التحلل من الالتزام الإسلامي، جزئيًا أو كليًا، وهذا ما يكون له بالغ الأثر السيء على نفسية الفرد المرتبط بهذه الوساطات .

وأما الثاني –أي عدم ضمان سلامة السير في طريق الالتزام فهمًا وتنزيلاً- فيتجلى في كون التربية المصدرية تربية شمولية، لأن الارتباط بالنصوص الشرعية لا يكون إلا كليًا، إذ بعضها يحيل على بعض، وبعضها يفسر بعضها الآخر.

فهي نسق كلي، يكون – باعتباره مادة تربية- منتجًا لتدين شمولي، لا يقصر معنى العبادة على هذا الجانب أو ذاك، ولا على هذا المجال دون ذاك . فالتزام الإسلام تدينًا، يكون كليًا، إذ يستشعر الفرد قصد التعبد ، في كل فعل حركي، سواء كان في المجال النقابي، أو السياسي، أو الرياضي، أو الإداري، فضلاً عن المجال التعبدي المحض، بتعبير الفقهاء. وإنما يكون هذا ناتجًا عن فهم سابق للإسلام، من خلال مصادره ذات الطبيعة الشمولية.

بيد أن التربية المرجعية قلما تسلم من الفهم والتنزيل التجزيئييْن للدين، لأنها لا تخلو من أحد أمرين: إما أن الوسيط ، مفكرًا كان، أو شيخًا، هو نفسه يعاني من قصور في الفهم، وإما أنه لا يعاني من هذا القصور، ولكن يكون في كتاباته ، وتوجيهاته، متأثرًا، فيما يتعلق بالتنزيل العملي للدين، بالزمان والمكان، من حيث الأولويات الظرفية، لا المبدئية، ثم من حيث نقل المفاهيم من مصادرها، باعتباره وسيطًا، يقوم بتلقينها للأفراد. فإلى أي حد يكون دقيقًا، وجامعًا مانعًا، في نقله وأدائه؟ ثم إلى أي حد تبقى تلك المادة – وقد حَلّتْ محل المصدر– صالحة للأجيال، بتمامها، وكمالها، رغم تغير الزمان والمكان؟

فالنتيجة إذن، هي أن التربية التوحيدية، باعتبارها ذات طبيعة مصدرية أساساً، أضمن لعمق التأثير التربوي، ودوامه، ثم لسلامة ما ينتج عنها من تدين، تصوراً وممارسةً.

وقبل ختام هذه القضية، لابد من التذكر بأن المصدرية لا تعني إلغاء المراجع ، التي هي فهوم الناس للتدين، تصوراً وممارسةً، ولكنها تعني الإبقاء عليها، في سياقها المرجعي؛ حتى لا تكون لها أبداً السلطة المصدرية، ذات الطبيعة المطلقة، والتعبدية بمعناها المحض، بل تبقى باعتبارها مراجع، تتضمن تجارب دعوية، تفيد كأدوات إجرائية، لحسن الاستفادة من القرآن والسنة،

باعتبارهما مصدرين تربويين خاصة. وذلك هو السياق الحقيقي الذي يمكن للمرجع أن يفيد فيه، وأما رفعه إلى مقام المصدرية، فهو عين الخطأ، الذي يؤدي إلى الانصراف عن مصادر الإسلام، إلى أقوال الرجال، وأحوالهم.

شبهة حول التربية المصدرية:

لقد أثار بعض العاملين في الحقل الإسلامي، شبهة حول إمكانية اعتماد النصوص الشرعية في العملية التربوية، حيث وُوجِهْتُ أكثر من مرة، بعد إلقاء محاضرة أو المشاركة في مناقشة متعلقة بالموضوع، بما يفيد أن الناس ليسوا جميعًا مؤهلين، لفهم نصوص القرآن، والسنة، حتى تعتمد أساسًا للتربية الدعوية، ومن هنا تأتي ضرورة الوساطة الفكرية والروحية على السواء، كمنهج أساس في العملية التربوية.

ولذلك كان لزامًا علينا أن نبين طبيعة المنهج، في التربية المصدرية، من خلال الأمور التالية:

(أ) إن البرامج التربوية في المنهج المصدري، ليست بالضرورة من انتقاء المتربين، بل يجب أن تكون عملاً اجتهاديًا، يقوم به أهل الاختصاص الشرعي، من الدعاة، حيث يقومون باستقراء النصوص ذات البعد التربوي، من القرآن والسنة، مما نزل أو ورد في سياق تشكيل الشخصية المسلمة،

ضبطًا وعدالة، أو قوة وأمانة. ونحن نعلم أن عملية الاستقراء، والجمع، والتركيب، للبرامج عملية اجتهادية، لكنها لن تؤدي إلى وساطة بالمعنى الاصطلاحي المذكور، ومهما اختلفت اجتهادات المربين في تركيب البرامج التوحيدية، فإنها ستصب جميعًا في محيط القرآن والسنة، ومهما يكون بعد ذلك من قصور في تشكيل شخصية المتربي، ناتج عن قصور في تركيب النصوص الاجتهادية، فإن قابلية الفرد للاستدراك على نفسه، أو استدراك غيره عليه، تكون كبيرة، نظراً لعدم وقوعه في ارتباط وساطي يعميه عن رؤية الحقائق، ويلبس عليه، إذ هو مرتبط أساسًا بالله، من خلال كتابه، وسنة رسوله ﷺ، ولو بصورة غير دقيقة ووافية، هذا على افتراض أن قصوراً قد شاب عملية تركيب البرنامج التوحيدي، فلم يكن شاملاً لمتطلبات تكوين الشخصية الإسلامية، بإغفاله لبعض النصوص الضرورية، أو نحو ذلك. وإلا فالأصل أن واضعي البرامج، من أهل الاختصاص الشرعي، يكونون قد بذلوا من الجهد غاية الوسع، في استقراء ما يتضح أنه يشكل لبنة في هندسة الشخصية المسلمة من الآيات الكلية، وجوامع الكلم النبوي. وهذا عمل ليس من اختصاص المتربين، ولكنه من اختصاص المربين والدعاة العلماء.

(ب) إن دخول المتربي في برنامج توحيدي، قوامه النصوص الشرعية، كمادة مصدرية، ثم قراءات في كتب مساعدة، كمادة

مرجعية، لا يعني أبداً أن الفرد يجب أن يكون مفسراً، أو أصوليًا، أو فقيهًا، مدركًا للمكي، والمدني، وأسباب النزول، والعموم، والخصوص، والمطلق، والمقيد، وقواعد الاستدلال، ومناهجه، من أقيسة، ونحوها، لا! فالبرنامج التوحيدي ليس هدفه هو تخريج العلماء، بل محل هذا هو الجامعات، والمعاهد الشرعية، أما البرنامج، فقصده فقط تخريج الأقوياء الأمناء في مجال الدعوة، ليس إلاّ. وعليه، فإن مدارسة نصوص البرنامج، إنما هي محاولة تَمَثُّلٍ للمبادئ الإسلامية الأساسية، في بساطتها، مما يتعلق بتصحيح التدين، تصوراً وممارسة، وما يتعلق بأصول وقواعد الدعوة، ومنهج تنزيل كل ذلك في واقع الناس اليوم.

ثم إن وظيفة المتربي إزاء النصوص الشرعية، وهو يسهم في مدارستها، إنما هي الرجوع إلى كتب التفسير، وشروح الحديث، فيما يتعلق بالنص المدروس، للاطلاع على أقوال المفسرين والشراح، من أجل إضاءة الموضوع أولاً، ثم عليه بعد ذلك أن يقوم بعملية تركيب للمعنى، جامعًا، ومرجحًا من باب التعلم، والتدرب على اكتساب المفاهيم بصورة مستقلة؛ ولذلك وجب ألا يعتمد على تفسير واحد، أو شرح واحد، بل يعدد مراجع التفسير والشروح، مع العلم أنا لا نعد مثل هذه الكتب من أدوات الوساطة، لأنها بذاتها خاضعة للنسق القرآني، أو الحديثي على الإجمال، وقصدها إنما هو

محاولة ربط أعمق للقارئ بالنص الشرعي .. نعم لا ننكر حضور الذات المفسرة، أو الشارحة في المادة، ولكنها لن تؤثر بالشكل السلبي على النتيجة التربوية، لأن نهاية هذه، إنما هي الدوران حول النص أولاً وأخيراً. ولذلك كان التوجيه المقترح، ألا يقتصر على التفسير الواحد، أو الشرح الواحد، بل لابد من تعدادها، حتى تُتاح الفرصة للمتربي لبذل جهده الشخصي في تمثل النص، فهماً، وتنزيلاً، بما يناسب حاله وزمانه .. وهذا عمل قد يبدو لبعضهم صعباً على المتربي، ولكنا نقول كما يقول المثل: يبدأ المرء فرزدقياً، وينتهي جريرياً[١].

(جـ) أضف إلى ذلك، أن النص الشرعي، قرآناً كان، أو سنة، لا يعطي ثمرته، لمن لم يتهيأ لاستقبالها، ولا يبوح بأسراره إلا في ظل ظروف خاصة، وشروط سابقة، على المتربي والمربي معاً، أن يعملا على توفيرها وإعدادها.. إنها ببساطة ظروف وشروط التعبد .. ولذلك فإن مالك بن أنس، رحمه الله ، لم يكن يجلس لتدريس حديث رسول الله ﷺ، إلا متوضئاً، وفي أحسن ثوبه! فالجلسة التربوية يجب أن تكون جلسة عبادة، يستشعر فيها الجميع معاني التعبد، ولا مجال بعد ذلك فيها للغو الحديث ولهوه، وإنما هي كالصلاة، أولها إحرام، وآخرها سلام.

---

(١) سيأتي تفصيل هذه المسألة قريباً بحول الله في القضية الثالثة من هذا المبحث.

وهكذا فقط، تكون للنفوس قوة خاصة، واستعداد خاص، لاستقبال مفاهيم النصوص الشرعية، استقبالاً جيداً.. ولا بد للمحافظة على هذا المعنى، من تنزيل المادة التربوية (تَخَوُّلاً)، لا إكثاراً، ولا إثقالاً! وذلك بمراعاة العدد المناسب من الجلسات في الأسبوع، الذي يكفي لترقية المتربين في مدارج البرنامج التربوي، دون الإكثار من النصوص في الجلسة الواحدة، لتتاح الفرصة للأفراد، كي يعدوا للمدارسة إعداداً، ويتهيأوا للتعبد تهيؤاً، فلا يملوا، ويسأموا، وينزلقوا إلى اعتياد الجلسات اعتياداً، فتنحرف النفوس من الشعور العبادي إلى الشعور العادي، وتفقد النصوص الشرعية ثمرتها التربوية بالنسبة إليهم خاصة.. وإنما كان رسول الله ﷺ، مربي الأمة، يبلغ رسالته التربوية على أساس منهج التخول.

فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «**كان النبيُ ﷺ يتخوّلنا بالموعظة في الأيام، كراهة السآمة علينا**»[١]، وكذلك فَعَل المتخرجون من مدرسته ﷺ، فعن أبي وائل شقيق ابن سلمة، قال: «كان ابن مسعود رضي الله عنه، يذكرنا في كل خميس مرة، فقال له رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددتُ أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك، أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا»[٢].

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

ولم يكن الرسول ﷺ يكثر من النصوص في اللقاء الواحد، فالقرآن نفسه، إنما نزل مُنَجَّمًا، وفي ذلك ما فيه، من الفوائد التربوية، والتتبع المرحلي لتطور المستوى التديني للصحابة.. وللنسخ أثر كبير في إقرار هذا المعنى، كما حصل في تحريم الخمر مثلاً، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإن الرسول الكريم ﷺ، كان إذا حدَّث بحديث، أوجز، وأقل، ولم يسرد سرداً، فعن عروة بن الزبير، عن عائشة رضي الله عنها، قالت: «ألا يعجبك أبو هريرة، جاء يجلس إلى جانب حجرتي، يحدث عن رسول الله ﷺ، يسمعني، وكنت أسبح، فقام قبل أن أقضي سبحتي، ولو أدركته لرددت عليه.. إن رسول الله ﷺ، لم يكن يسرد الحديث كسردكم»[1].

وربما هيأ الناس بكلامه ﷺ، ليستعدوا استعداداً خاصاً، حتى يستقبلوا جيداً مفاهيم هامة، فيرقي المتربين إلى مقام تعبدي رفيع، ثم بعد ذلك يبث وصيته. وذلك نحو ما رواه أبو نجيح العرباض بن سارية، رضي الله عنه، قال: «وعظنا رسول الله ﷺ موعظة بليغة، وَجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله! كأنها موعظة مودع، فأوصنا.. قال: **«أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمّر عليكم عبد حبشي، وإنه من يعش منكم، فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة»**[2].

(١) جامع بيان العلم، ١٤٨/٢.

(٢) رواه أبو داود، والترمذي، وقال حسن صحيح.

هذا وقد كان عرض الرسول ﷺ، للنصوص القرآنية، وكذا لحديثه الشريف ﷺ، عرضًا يطبعه -إلى جانب الإقلال والتخول- التفصيل، والترسيل، حتى يتم الإفهام على أحسن صورة، فعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ: «**كان إذا تكلّم بكلمة، أعادها ثلاثًا، حتى تُفْهَم عنه**»[1]، و«**كان يُحَدِّث حديثًا، لو عدَّه العادّ لأحصاه**»[2]، وذلك أنه: «**كان في كلامه ترتيل أو ترسيل**»[3].. وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: «**كان كلام رسول الله ﷺ، كلامًا فصلاً، يفهمه كل من يسمعه**»[4].

إذن فكل هذه العناصر، من تَخَوُّل وإجراءات تربوية تنزيلية، إنما هي لصناعة الحال التعبدي للجلسة، الذي يقرّب المتلقين إلى مستوى النص الشرعي، فيحصل التفاعل، إضافة إلى ما يبذلونه من جهد، مَهْمَا تواضع، لاستثماره، فتكون الفائدة التربوية المرجوة طيبة بإذن الله.

(د) ثم إن دعوة الناس إلى الكتاب والسنة، في المجال التربوي، ليست على غير أساس، ولا نظام، بل لابد من عمل جماعي منظم، يملك مجموعة من المربين، المؤطرين، المختصين في الصناعة التربوية الدعوية. هؤلاء

---

(١) رواه البخاري.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه أبو داود، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، ٤٨٢٣.
(٤) رواه أبو داود، وأحمد، وابن سعد، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، ٤٨.

لا يجوز أن ننسى دورهم في تنزيل العملية التربوية، وتذليل العقبات أمام المتربي، قصد تمثلٍ أحسن للمفاهيم الإسلامية، من مصادرها الشرعية.. ولكن طبعًا ليس بالمنهج الوساطي، إذ هناك فَرْق كبير بين دور المربي، ودور الوسيط، وذلك ما نفصله بحول الله في القضية الثانية.

ثانيًا : التربية بين المربي والوسيط

في إطار المقارنة، بين التربية التوحيدية والتربية الوساطية، يمكن أن نلاحظ شساعة الفرق بين العمليتين، من خلال المقارنة بين المسؤولين التربويين في هذه وتلك. إذ هو في التربية التوحيدية (مُرَبٍّ)، وهو في التربية الوساطية مجرد (وسيط)، وإن تسمى بالمربي، ذلك أن المربي هو الذي يقوم بتنمية الفرد، وترقيته في مراتب التدين، والتشكيل البنيوي لشخصيته، على أساس التجرد والاستقلال.. فلو أردنا التمثيل المادي للعمليتين، من حيث اختلاف المربي والوسيط، لكان المربي هو معلمك كيفية صيد الأسماك في المثال المشهور: (لأن تعلمني كيف أصطاد السمك، خير لي من أن تعطيني كل يوم سمكة)، ولكان الوسيط هو الذي يتصدق عليك كل يوم بسمكة! فانظر أي فرق بينهما! وأي فرق بعد ذلك بين العمليتين في الحال والاستقبال!

فالمربي إذن هو الذي يعلمك، كيف تكون منتجًا.. والوسيط هو الذي ينتج بدلاً منك، فيعطيك المفاهيم جاهزة من خلال كتابه، أو رده، أو حاله، فلا تكون إلا مستهلكًا.. والمربي هو الذي يعلمك كيف تنمي قدراتك الذاتية، ومواهبك الشخصية، فتكون بعد ذلك نسيج وحدك، وطراز شخصك، لا فرداً من نمط واحد، متعددٍ في الشكل، متحد في الجوهر، يسعى لتقمص شخصية الوسيط؛ لأن الوسيط يقوم بالحد من مواهبك الشخصية، ومحاولة إلغاء قدراتك الذاتية، من خلال تلقينك المفاهيم الجاهزة، والمقولات المستهلكة؛ فلا يترك لك فرصة للتفكير، أو النقد، أو المراجعة؛ لأنه يقوم من خلال وساطته، بتدمير جهاز المناعة الذاتية، في العقل، فيحدث في الفرد حالة من الاستسلام التام، لكل ما يتلقاه عنه، حقًا كان أم باطلاً!

ويتضح الفرق أكثر في النتيجة التربوية لكل من المربي والوسيط، وذلك أن المتربي المتخرج من المدرسة التوحيدية، يكون موحداً حقًا لله عز وجل، تصوراً وممارسة، حيث لم يكن خاضعًا قط لشخصانية المربي، بقدر ما كان خاضعًا لتوجيهات النصوص الشرعية، فهو إذن مرتبط عقديًا بالله عز وجل، لا بهذا المفكر، أو بهذا الشيخ. بينما هالة الوسيط القوية، تتغلب على إرادة المتربي المستلبة، والممنوعة من الإنتاج، الموجهة بالقصد الأول إلى الاستهلاك،

فتحل (بقداستها) المقصودة، أو غير المقصودة، في شعور المتربي، فإذا به، من حيث يدري، أو لا يدري، يعاني من (وثنية) خفية، حيث يزاحم حضور الوسيط بهالته، حضور الذات الإلهية في نفسه، ووجدانه! ثم بعد ذلك في ممارسته، وحركته.

إن الوسيط على حد تعبير الدكتور إدريس نقوري يحتل: « مركز الصدارة، ويتمتع بسلطة قوية، ذات تأثير ونفوذ كبيرين على الذات، وعلى الموضوع في آن واحد »[1].

بينما نجد المربي متجرداً من كل ذلك، إذ ما هو من الناحية التربوية، إلا أداة إجرائية بالقصد الأصلي، تساعد على تنزيل العملية التربوية على أحسن وجه، وتُمثل فعل الأمر (قُلْ) المحذوف في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (البقرة:١٨٦)، فلم يذكر النصّ الرسول ﷺ، حينما تعلق الأمر بمسألة تعبدية تربوية، حيث وجب الربط المباشر للمتربين بالله، إذ لم تكن المسألة تعليمية، يرتبط الجواب فيها بوجود المعلم الشارح، كما في سائر أسئلة القرآن، نحو قوله تعالى:

---

(١) نظرية الوساطة، ١٤.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى﴾ (البقرة: ٢٢٢)، ونحوها كثير كما هو معلوم[١].

فالمربي كما هو في الآية الأولى، موجود بالقصد التبعي، لا بالقصد الأصلي، لأن السياق يقصد بالأصالة، ربط العباد بربهم ربطًا مباشرًا، ولا يمنع هذا من تقدير وجود المربي، من خلال الفعل المقدر (قل)، باعتباره مكوّناً للمتربين بالمادة الشرعية أولاً، وبسلوكه الإسلامي، وقدوته الحسنة بعد ذلك ثانيًا، ولكن على أساس أن يكون هذا القصد الثاني خادمًا للقصد الأول الأصلي، لا هادمًا له، لأنه إنما هو مكمل ومتمم لقصد ربط العباد بربهم، وأي انحراف عن هذا القصد، يفقد المربي وظيفته كمرب، فيتحول إلى وسيط مزاحم للقصد الأصلي التعبدي، ومخالف له.

ومن هنا قال أبو إسحاق الشاطبي في قاعدته المقاصدية: « كل تكملة، فلها من حيث هي تكملة، شرط، وهو أن لا يعود اعتبارها على الأصل بالإبطال »[٢].

ويختلف المربي بعد ذلك عن الوسيط، في منهج الاستيعاب الخارجي،

---

(١) مثلاً، البقرة، ١٨٩ و٢١٥ و٢١٧ و٢١٩ و٢٢٠ و٢٢٢. المائدة، ٤. والأعراف، ١٨٧. والأنفال، ١. والإسراء، ٨٥. والكهف، ٨٣ ... الخ.
(٢) الموافقات، ٢/١٣.

كما يسميه الأستاذ فتحي يكن[1]، لكون المربي يستقطبه لحركته على أساس مبادئها، وبرامجها، لا على أساس أسمائها ورموزها، فلا تطغى الحزبية على المبدئية، ويكون التركيب الأولي للفرد، إنما هو على مدى الاقتناع بالمشروع الكلي للحركة، لا على مدى الإعجاب بالقائد الفلاني، أو المفكر الفلاني، ولا على مدى الانبهار بكرامات الشيخ الفلاني أو مقاماته..

فالربط التوحيدي، الذي يقوم به المربي، هو ربط بالمشروع الإسلامي أساسًا، فهو ربط بالله.. والربط الوساطي الذي يقوم به الوسيط، هو ربط بالذات، أو الذوات الشخصانية، المؤسسة للتنظيم، والْمُسَيِّرة له، فيكون الانحراف التربوي من أول الطريق، بحيث إنه بقدر ما يستطيع الفرد المقتدي بالمربي، تجريد قصده لله عز وجل، وإخلاص أعماله له وحده سبحانه، بقدر ما يعجز الفرد المقتدي بالوسيط عن فعل ذلك، إلا من خلال استحضار تلك الوسائط، التي كانت سبب انتمائه للحركة الإسلامية المعنية، وسلوكه في نظامها التربوي، فيعمل العاملون بعد ذلك في إطار التوحيد، بقصد التعبد، ويقع العاملون في إطار الوساطة، في شَرَك قصد الحظ، المرتبط بالأشكال والرسوم، على حد تعبير القوم! وذلك قد يكون هو الشِّرك الخفي!

إن الداخل إلى مؤسسات العمل الإسلامي، عبر منهج الوساطة،

---

(١) الاستيعاب في حياة الدعوة والداعية، ١٣.

لا يدخله إلا لأن فيه فلانًا وفلانًا، وتلك أولىٰ الآفات التربوية، المترتبة عن وساطة الوسيط، والتي تغرس في النفس تعصبًا حزبيًا يصعب معه، إن لم يستحل، إنشاء الحوارات، وتوحيد الجهود، وتنسيق الأعمال. بل هو داع خطير للانشقاقات والصدمات (الأخوية)، لأن المتربين هنا إنما يؤمنون بأسماء الرموز، لا بما يدعون إليه أساساً!

ثالثًا: التربية بين التكوين والتلقين

أشرنا في المقارنة بين المربي والوسيط، إلى أن المتربي، يتعلم من المربي طرائق الإنتاج، وأنه لا يتعلم من الوسيط إلا طرائق الاستهلاك، وذلك هو المقصود عندنا ههنا، من مصطلحي (التكوين والتلقين)، فهما معنيان متقابلان، لأن التكوين هو طبيعة العملية التربوية، في إطار التوحيد، والتلقين هو طبيعتها في إطار الوساطة.

فالتكوين إذن، هو إعداد الفرد -كما مثّلنا في مثال اصطياد السمك- ليكون قادراً على تَمَثُّل المفاهيم الشرعية من مصادرها.. إنه محاولة اكتشاف مواهب الفرد، وطاقاته الذاتية، لتطويرها، قصد إنتاج الشخصية الإسلامية الفعالة. أما التلقين فهو: شحنه بالمفاهيم الجاهزة، المتمثلة في فكر المفكر، أو سلوك الشيخ..

وعليه، فإن التربية التوحيدية، تعمل على إنتاج العقلية القيادية، المنتجة في مجالها، والجندية المبادرة، المنتجة في مجالها أيضًا، لأن طبيعة العمل بالنصوص، تكسب الفرد قوة منهجية ذاتية، ودربة على العصامية.. فأقل شيء تكونه في المتربي البسيط، الثقافة، عندما تواجهه بالنص الشرعي، وتكلفه بتفسيره، أو شرحه، هو أنك تنبه نفسيته الخاملة وتوقظها، إذ تجعله يحس أنه يجب أن يعطي هو أيضًا، لا أن يستهلك فحسب.. ثم إنه يقوم بمراجعة ذاتية داخلية، من أجل العمل على استخدام طاقاته، وتطويرها، وهكذا يبتدئ تَكَوُّن العقلية الإنتاجية.

فكثيرة هي تلك الشخصيات الانطوائية، التي تذم نفسها، وتستهين بقدراتها الذاتية، والواقع أن لها من الطاقة -لو وجدت من يكتشفها كي يتأكد منها صاحبها أولاً، ثم يقوم بتطويرها- ما يعطي الشيء الكثير لهذه الدعوة، وللإسلام عامة، فالتعامل مع النصوص الشرعية، كفيل بإقناع الفرد بذاته أولاً.

ولذلك فإن أول ميزة يتخرج بها المتربي من البرنامج التوحيدي، هي القوة الإرادية المبادرة، فهو طاقة فعالة منتجة، حيثما حل أو ارتحل، لا وجود في شخصيته للرغبة الاستهلاكية، والشعور الانتظاري.. فرب شخص توحيدي التربية، يرتحل إلى بلدة نائية، لم يمتد إليها العمل الإسلامي، ويتعذر التواصل معه، ورغم ذلك، يأتيك بعد سنة، أو سنتين، متبوعًا بجماعة من الأقوياء الأمناء، تشكل حصيلة إنتاجه التربوي طيلة غيابه، فيمد حركة

الإسلام برافد جديد من العاملين، ويضيف إلى جغرافيتها منطقة لم تكن في الحسبان . .

ورُبَّ شخص آخر، تخرج من برنامج وساطي، يعين في بلدة آهلة بالعاملين والدعاة، ويكلف بقطاع ما، أو عمل ما، وبعد مدة يأتيك شاكيًا باكيًا: إن المسؤولين لم يتصلوا بنا، إن المسؤولين لم يهتموا بنا، إنهم لم يزودونا، إنهم. . . إنهم. . . الخ، ولا يصدر اتهامًا واحدًا لنفسه!! فتحس أن الرجل قد فتر فعلاً، بل كاد يتلاشى.

فالفرق بين النموذجين يرجع أساسًا إلى طبيعة العمل التربوي، الذي تربى عليه كل منهما، فالأول كما ذكرنا رجل خضع لتربية تكوينية، لا تلقينية، فتكوّنت فيه شخصيته الفاعلة المبادرة، وعقليته الإنتاجية لا الاستهلاكية! فهو وإن رحل إلى بلدة ليست فيها بيئة إسلامية، فإنه أوجدها وصنعها. وأما الثاني فهو رجل خضع لتربية تلقينية، لا تكوينية، فتلقن ما يصلح به تدينه الذاتي إلى حين، لا ما يصلح به غيره، لأن العقل المصلح، أو الإرادة المنتجة لا تلقن أبدًا، ولكنها تكون تكوينًا. .

ولذلك رغم أنه عين في بلدة ذات بيئة إسلامية، فإنه لم يستطع القيام بمهمته المنوطة به، بل إنه كان ينتظر اتصال المسؤولين به وتزويده، ومساعدته، ولما لم يكن ذلك، بدأ يتدهور تدينه الشخصي، والتزامه الذاتي، وهو في ذلك معذور، لأنه ألفَ أن يستهلك، ولم يألف أن ينتج؛

لأن المنهج الذي تربى عليه، لم يتح له ذلك، فقد كانت شخصيته مستلبة من لدن الوسيط، الذي كان ينتج كل شيء، ويطعم أفراده المفاهيم جاهزة..

ومن هنا لم يدرك هذا المتخرج الجديد، أن عليه أن يفطم نفسه عن الاستهلاك، وأن يشرع في الإنتاج، وحتى لو أدرك ذلك، فإنه لن يستطيع تحقيق تلك الإرادة في نفسه، وحتى لو أراد، فإنه لن يتمكن من الإنتاج فعلاً، لأن عقله لم يشكل ذلك التشكيل، فيكون عليه إعادة تربية نفسه من جديد.

وهكذا ففرق بين شخص كهذا، لو عُين في منطقة نائية عن نفوذ العمل الإسلامي، لربما ضاع وتساقط، وبين شخص يذهب إلى هناك، وبعد عام يأتيك بقبيلتي أسْلَمَ وغفار، تمامًا كما صنع أبو ذر الغفاري، رضي الله عنه[1].

ثم إن التربية التكوينية بعد ذلك، تنتج عقلاً علميًا، وشخصًا منهجيًا، يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، والأفكار الوهمية، والغيبية التواكلية، ذلك أن استفادة المفاهيم من نصوص الشرع نفسه، كعملية تكوينية، تكسب الفرد منهجية تحليلية نقدية، ومقاييس علمية لقبول الأفكار أو رَدِّها، ومَلَكة خاصة

(١) جاء إلى مكة فأسلم، ثم أرسله النبي ﷺ إلى قبيلته (غفار)، فمكث بها، حتى هاجر النبي ﷺ، ثم جاء إلى المدينة بقبيلته، وجارتها (أسلم)، مسلمتين معًا. فقال رسول الله ﷺ، «غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله». صحيح مسلم، كتاب فضائل الصحابة.

لمعرفة المقاصد العامة للشرع، يُرجع إليها كل ما يتلقاه من كلام، أو يقرؤه من توجيه وتخطيط، فيدع المخالف، ويقبل الموافق.

فعقل مثل هذا، هو عقل إسلامي مسدد، يصعب أن تتسرب إليه الخرافة، أو الفهوم المنحرفة، في هذا الاتجاه أو ذاك، لأنه محصن بحاسة استفهامية، لا تدخل في قصد التكليف -على حد تعبير الشاطبي- إلا بعد تَبَيُّن قصد الإفهام[1]، إذ لا يجوز أن يتأخر البيان عن وقت الحاجة.

وأما التربية التلقينية، فهي بالمقابل تنتج عقلاً يفتقر إلى أساسيات التفكير المنهجي، ومبادئ العقل العلمي، ذلك أن السكون السلبي، الذي يمارسه المتربي، إزاء الوسيط، وبرنامجه التربوي، هو ضرب من اغتيال العقلية النقدية، وتكريس لقابلية التقبل المطلق، والاستسلام التام، لكل المفاهيم الوساطية.. فلا قدرة لمثل هذا، على التمييز بين الحق والباطل، وبين المفهوم الصحيح والمفهوم المدليس، ولذلك فهو أبواب مشرعة لدخول التفكير الخرافي، ومفاهيم الغيبية التواكلية، ذات الطبيعة الانتظارية، لا الغيبية التوكلية، التي تبادر إلى الأخذ بالأسباب الشرعية، والسنن الربانية، في النفس والمجتمع..

وما أكثر أن تلاحظ شيوع الأحاديث الضعيفة، بل والموضوعة بين مثل تلك العقليات، وكذا ترويج الإشاعات ذات الطبيعة الأسطورية، والأقوال

---

(١) الموافقات، ٢/٦٤.

الشاذة، و(الفقه) الغريب! ليس لأنها عقليات غير عالمة.. فالعالمية ليست مطلبًا للبرامج التربوية، كما أسلفنا، ولكن لأنها عقليات غير استفهامية، ولا نقدية، ولا منهجية، أي ليست علمية.. و(العلمية) ليست حكرًا على العلماء، والمثقفين، بل ربما تجدها لدى الفلاح البسيط، أو لدى العامل المحدود الثقافة؛ لأنها طريقة في التصرف والتفكير، قبل أن تكون طريقة في البحث.

وأخيراً فإن التربية التكوينية، تنتج طاقات مختلفة، باختلاف مواهبها الذاتية، وميولاتها الجِبلِّية، ومؤهلاتها الفطرية، فتستطيع بذلك سد الخلات، وملء الثغرات، وإشباع الحاجات، في إطار المشروع الدعوي الإسلامي، رغم اختلافها وتعددها، لأن العملية التكوينية، تعمل على اكتشاف مواهب كل فرد على حِدَة، وتوجيهه نحو تنميتها وتطويرها، وهذه بطبعها مختلفة، متعددة بتعدد الناس، ولذلك تعمل التربية التكوينية على تيسير الأفراد لمَا خُلقوا له من اختصاصات، تأسيًا بقول الرسول ﷺ: «**اعملوا، فكلٌ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له**»[1].

لكن التربية التلقينية، لا تراعي -باعتبارها تلقينًا جاهزًا- الفوارق النفسية، والتخصصات الجِبِلِّية، بل تطبع الكل بطابع واحد، فتنتج نمطًا واحداً من الأفراد، كلهم نسخة واحدة، صادرة عن الوسيط.

---

(١) متفق عليه.

الفصـــل الثاني
المدرسـة النبـوية ..نمـوذج التربيـة التوحيدية

المبحــث الأول
الخصائص التوحيدية للتربية النبوية

لم يكن عبثًا أن يستمر القرآن الكريم، يتنزل على الرسول ﷺ، ثلاث عشرة سنة بمكة، مؤسساً عقيدة التوحيد، ومديراً حركة الدعوة كلها في هذه المرحلة، على محورها، وموجهًا تربية الصحابة الكرام على أساسها، فقد كان الرسول ﷺ، يعمل على تأسيس الجماعة الإسلامية الأولى، استيعاباً، وتربية على عقيدة (لا إله إلا الله)، بكل دلالاتها التصورية والسلوكية، ومن هنا كان سعيه عليه الصلاة والسلام إلى ربط المؤمنين بالله، من خلال القرآن الكريم، منهجًا تربويًا، لزمه حتى آخر حياته. فالعهد المدني في الحقيقة، ليس إلا استمراراً للمنهج التوحيدي العقدي، رغم الطابع التشريعي للسور المدنية.. فرغم استجابة القرآن لحاجيات المجتمع الجديد التشريعية، فإن العمق التربوي للخطاب القرآني، لم يتغير من حيث المقاصد، رغم تغير الوسائل، كما سنبين بحول الله.

١ - المصدرية القرآنية :

فالرسول ﷺ، دأب على ترسيخ الارتباط بالقرآن ، باعتباره، مصدراً وحيداً للتربية[١]، ذلك **أن المصدرية القرآنية، باعتبارها أهم، وأول خصائص التربية التوحيدية**، النبوية، كانت حاضرة حضوراً قوياً في التوجيه التربوي النبوي، قولاً وفعلاً.

فقد وضع البخاري ترجمة لبابٍ من أبواب كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، نصها: باب قول النبي ﷺ : «**لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء**»، ثم قال ابن حجر معلقاً: «هذه الترجمة، لفظ حديث، أخرجه أحمد، وابن أبي شيبة، والبزار، من حديث جابر، أن عمر، أتى النبي ﷺ بكتاب، أصابه من بعض أهل الكتاب، فقرأه عليه، فغضب، وقال: «**لقد جئتكم بها بيضاء نقية، لا تسألوهم عن شيء، فيخبروكم بحق، فتكذِّبوا به، أو باطل، فتصدّقوا به، والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[٢].

---

(١) معالم في الطريق ، ١٢ .

(٢) ثم قال ابن حجر بعدها، معلقًا: «ورجاله موثقون، إلا أن في مجالد ضعفًا»، وأورد له طرقًا أخرى، لكنها ضعيفة، إلا موقوفًا منها على ابن عباس، حسنه، ثم قال عن ترجمة البخاري: «واستعمله في الترجمة لورود ما يشهد بصحته من الحديث الصحيح» (فتح الباري،١٣/٣٣٤)، مشيراً إلى حديث أبي هريرة بنفس الباب، قال: كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية، ويفسرونها بالعربية ، لأهل الإسلام، فقال رسول الله ﷺ : «لا تصدّقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله، وما أنزل إلينا، ما أنزل إليكم» الآية.

ومن هنا توثق ارتباط الناس بالقرآن في العهد النبوي، ارتباطًا عمّق صلة القلوب بربها، إلى درجة أن الصحابة، رضوان الله عليهم، كانوا يتتبعون الوحي، تتبع المتلهف، الحريص على الترقي، في مدارج المعرفة بالله، والسلوك إليه سبحانه، ولم يكونوا يلتفتون إلى شيء غير القرآن والسنة، في تزكية نفوسهم، وتدينهم، فعمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي نهاه الرسول ﷺ، عن الاستمداد من التوراة، يحكي لنا قصة ارتباطه بالقرآن والسنة في حديث له، إذ كان مكلفًا، وصاحبًا له، بالمرابطة في ثغر من ثغور المدينة، ترقبًا لغزو متوقع، من ملك غسان قال:

«كان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ، فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي وغيره[1]، وآتيه بمثل ذلك، وكنا نتحدث أن غسان تنعل الخيل لتغزونا»[2].

فرغم أن الرجلين قد كلفا بمهمة المرابطة بالثغر، على حدود المدينة المنورة، فإنهما حريصان على تتبع أخبار القرآن والسنة، ونيل حظهما منهما. فجيل الصحابة إذن، كان جيلاً قرآنيًا حقًا.

(١) المقصود (بغيره)، السنة النبوية، كما هو ظاهر من تتمة الحديث في صحيح مسلم.
(٢) متفق عليه، واللفظ لمسلم.

٢ - تعميق الاتجاه التوحيدي :

إنها قلوب تعيش في الأرض، لكنها تتغذى بنور السماء مباشرة، وكان حضور الرسول ﷺ في ذلك ، حضور المربي، الذي يبيِّن ويعمّق هذا الاتجاه التوحيدي، في قلوب الصحابة الكرام، ولم يكن حضور الذي يعلّق الناس بشخصه، وهذه خاصية أخرى، تميز بها المنهج التربوي النبوي؛ إذ كان شخص الرسول ﷺ إزاء القرآن، الذي هو كلام الملك الواحد الصمد، مجرد عبد من عباد الله، لا ميزة له إلا من حيث كونه يُوحىٰ إليه، وكونه أعبدهم له سبحانه، وأتقاهم له، فكان من الناحية التربوية، قدوة للناس في طريقهم إلى الله، أعني من الناحية التوحيدية العقدية، التي هي جوهر التربية النبوية، وفي ذلك قال الله عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف:١٠٥).

ولقد كان ﷺ دائم التنبيه إلى هذا المعنى السامي، كما في قوله ﷺ : **«لا تُطْرُوني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله»**[١]، وربما وقع رغم ذلك، نوع من الانحراف عن هذا المنهج التربوي القويم، نظرًا للحب الشديد الذي يُكنّه الصحابة لشخصه ﷺ ، فيتم التذكير بهذه الخاصية التربوية المتميزة، فتعود المياه إلى مجاريها بسرعة، ولا يقع التمادي في تكريس الوساطة المذمومة!

---

(١) رواه البخاري.

من ذلك ما صدر من عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، يوم وفاة النبي ﷺ، حيث قال: «والله ما مات رسول الله ﷺ ... وَليبعثنّه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم»، فقال أبو بكر رضي الله عنه: «أيها الحالف على رِسْلِكَ!» فلما تكلّم أبو بكر، جلس عمر، فحمد اللهأبو بكر، وأثنى عليه، وقال: «ألا من كان يعبد محمداً، فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت». وقال: ﴿ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الزمر: ٣٠)، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ ﴾ (آل عمران: ١٤٤). «ثم لقد بَصَّر أبو بكر الناسَ الهُدى، وعرّفهم الحق الذي عليهم، وخرجوا به يتلون: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ... ٱلشَّـٰكِرِينَ ﴾ (آل عمران: ١٤٤)[١].

إن هذه العودة السريعة، والقوية، في نفس الوقت، إلى مقتضى القرآن، لم تكن لتحصل في هذا الموقف الصعب، لو لم تكن للقرآن الكريم المصدرية المطلقة في تكوينهم التربوي، ولو كانت شخصية الرسول ﷺ في حياتهم التربوية، شخصية وسيط، لا شخصية مربٍّ.. وهذا المعنى، هو الذي رسخ في عقلية الجيل القرآني، واستمر بعد وفاة الرسول ﷺ، كما يشهد بذلك حديث أنس، رضي الله عنه، قال:

«قال أبو بكر، رضي الله عنه، بعد وفاة رسول الله ﷺ لعمر، رضي

---

(١) الحديث مختصر من صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة.

الله عنه: انطلق بنا إلى أم أيمن، نزورها كما كان رسول الله ﷺ يزورها..
فلما انتهيا إليها، بكت، فقالا لها: ما يبكيك؟ ما عند الله خير لرسوله ﷺ
فقالت: ما أبكي أن لا أكون أعلمُ أن ما عند الله خير لرسوله ﷺ،
ولكني أبكي أن الوحي قد انقطع من السماء! فهيّجتهما على البكاء، فجعلا
يبكيان معها»[١]

فالنص دال بوضوح، على أن ارتباط الصحابة، إنما كان بالقرآن، الذي
هو ربط مباشر بالله، ولم يكن بشخص الرسول ﷺ، إلا من حيث هو مُبَلِّغ
عن الله، وفي ذلك تأكيد لتوحيدية المنهج النبوي من خلال الخاصيتين
المذكورتين: **المصدرية القرآنية**، و**الحضور التربوي للرسول ﷺ**،
كمربٍّ، لا كوسيط. وما ذلك إلا استجابة لتوجيه القرآن نفسه،
حيث قال الله عز وجل: ﴿وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمۡ تُعَلِّمُونَ
ٱلۡكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمۡ تَدۡرُسُونَ﴾(آل عمران: ٧٩)، قال الطبري، رحمه الله،
في هذه الآية:

«أخبر تعالى ذكره عنهم، أنهم أهل إصلاح للناس، وتربية لهم،
بتعليمهم إياهم كتاب ربهم، ودراستهم إياه وتلاوته»[٢].. ومن ثم صح أن
نقول: إن القرآن الكريم، كان هو الباب المفتوح والمباشر الذي ولجه الصحابة
الكرام إلى ملكوت الله، حيث صنعوا على عين الله. إنه السبب الوثيق،

---

(١) رواه مسلم.
(٢) جامع البيان، ٣/٣٢٨.

الذي تعلّقت به قلوبهم، فأوصلهم إلى مقام التوحيد، أو كما قال الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «**كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض**»[1].

٣ - اعتماد منهج التكوين:

هذا، **وأما الخاصية الثالثة للتربية النبوية فهي** -كما تقرر في عناصر المقارنة بين التوحيد والوساطة- **اعتماد منهج التكوين، دون منهج التلقين!** وهو أمر واضح في التربية النبوية، تشهد له الأصول الصحيحة الصريحة، شهادة متواترة المعنى. وذلك أنا قررنا قبلُ، أن اعتماد النصوص الشرعية في حد ذاته، ومدارستها، كمادة تربوية، لا ينتج عنه إلا التكوين.

ولم يكن الرسول ﷺ، كما تبين، يعتمد شيئًا غير القرآن، وسنته المطهرة، باعتبارها تفسيرًا له. وكان يوجه الصحابة إلى اكتشاف قدراتهم الذاتية، ومواهبهم الفطرية، وتنميتها بالعمل قائلاً: «**اعملوا فكل ميسر لما خُلق له**»[2]، محاربًا بذلك العقلية الاستهلاكية التواكلية، ويُقِرُّ المختلفين من أصحابه، على الاجتهاد، المصيب منهم، والمخطئ، على السواء، كما هو

---

(١) رواه أحمد، والترمذي، وابن أبي شيبة، والطبري، وصححه الألباني في: (ص ج ص)، ٤٤٧٣.

(٢) متفق عليه.

معلوم في حديث بني قريظة المشهور[1]، مربيًا إياهم، ومشجعًا لهم على التزام العقلية الاجتهادية المبادرة.

وكثيرة هي المفاهيم التي أوصلها ﷺ، إلى أصحابه عن طريق السؤال أولاً، حتى إذا سئلوا، أَعْمَلُوا فِكْرَهُم، محاولين التوصل إلى الإجابة، فإما أجابوا، وإما عجزوا، ويكونون حينئذ، قد تلقوا درسًا في ضرورة التفكير الشخصي، والاستقلال العقلي، في الفهم والاستنباط، ثم يقرهم على جوابهم، أو يصحح لهم بإجابته ﷺ. ونماذج هذا الأسلوب كثيرة جداً، منها قوله ﷺ: «**أتدرون ما العَضَه؟ نقلُ الحديث من بعض الناس إلى بعض؛ ليفسدوا بينهم**»[2]، وقوله: «**أتدرون ما الغيبة؟**»[3]، وقوله أيضًا: «**أتدرون مَن المُفلس؟**»[4]، وقوله أيضًا: «**أتدرون ما هذان الكتابان؟**»[5]، مشيراً إلى يمينه وشماله، وقوله كذلك: «**هل تدرون ما الكوثر؟**»[6]،

---

(١) عن ابن عمر، رضي الله عنهما، قال: «قال النبي ﷺ، يوم الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة، فأدرك بعضهم العصر في الطريق، فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيهم، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك، فَذُكِرَ ذلك للنبي ﷺ، فلم يعنفْ واحداً منهم» (رواه الشيخان واللفظ للبخاري).

(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد، والبيهقي في سننه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٨٥.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

(٥) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٨٨.

(٦) رواه مسلم.

وقوله: «**يا أبا ذر! أترى أن كثرة المال هو الغنى؟**»[1]، إلى غير ذلك من الأحاديث النبوية، المبنية على السؤال والجواب.

ومما يبين تكوينية المنهج النبوي في التربية، أنه ﷺ، كان يراعي الخصائص الذاتية لكل فرد من الصحابة، ولا يسعى إلى تربيتهم على نمط واحد، وإنما يكوّنهم بما يناسب مواهبهم، وشخصياتهم، على اختلافها، ولذلك كان جوابه يختلف كلما سُئل: «**أي الأعمال أفضل؟**» مراعيًا بذلك حال السائل وطبيعته، فيُجيب مرة بقوله ﷺ: «**أفضل الأعمال، الإيمان بالله وحده، ثم الجهاد** ...» إلى آخر الحديث[2]، ويجيب مرة أخرى بقوله: «**أفضل الأعمال، الصلاة في أول وقتها**»[3]، وكذلك: «**أفضل الأعمال أن تُدخل على أخيك المؤمن سرورًا** ...» الحديث[4] ... الخ.

وينظر إلى عبد الله بن عمر، فيرى فيه أهلية لصلاة الليل، فيقول فيه: «**نعمَ الرجل عبد الله، لو كان يصلي من الليل**»[5].

ويُسْلم خالد بن الوليد، وهو قائد عسكري بطبعه، فيزكي فيه النبي ﷺ، هذه الموهبة، ويوجهها إلى خدمة الحق، ولا يميل به إلى الإكثار من

---

(١) رواه النسائي، وابن حبان، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٧٨١٦.

(٢) رواه الطبراني، وابن حبان، وأحمد، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ١٠٩١ و١٠٩٢.

(٣) رواه أبو داود، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ١٠٩٣.

(٤) رواه ابن أبي الدنيا، والبيهقي، وابن عدي في الكامل، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، ١٠٩٦.

(٥) متفق عليه.

صلاة الليل، أو رواية الحديث، ولكن يقول فيه: «**نعم عبدُ الله، خالدُ بن الوليد: سيفٌ من سيوف الله**»[1].

ويقول في أبي عبيدة بن الجراح: «**إن لكل أمة أمينًا، وإن أميننا -أيتها الأمة- أبو عبيدة بن الجراح**»[2].

ويدعو ﷺ لابن عباس قائلاً: «**اللهم علّمه الحكمة، اللهمّ علّمه الكتاب**»[3]، وقال ﷺ: «**أرحم أمتي بأمتي، أبو بكر، وأشدهم في أمر الله، عُمر، وأصدقهم حياءً، عثمان، وأقرؤهم لكتاب الله، أُبيّ بن كعب، وأفرضهم، زيد بن ثابت، وأعلمهم بالحلال والحرام، معاذ بن جبل، ولكل أمة أمين، وأمين هذه الأمة، أبو عبيدة بن الجراح**»[4]، إلى غير ذلك من الأحاديث، التي تدل على وعي النبي ﷺ، بمواهب أصحابه، وخصائصهم الذاتية، وعلى تربيته ﷺ لهم، بناءً على ذلك، مما يؤكد بعده عليه السلام عن التربية النمطية، ذات النموذج الجاهز، والمتكرر، عن نسخة واحدة، هي الوسيط، لا غير.. وبذلك يكون الرسول المربي ﷺ، مكونًا، لا ملقنًا، ومربيًا، لا وسيطًا.

(١) رواه أحمد، والترمذي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦٧٧٦.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه البخاري.
(٤) رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٨٩٥.

المبحث الثاني
المراحل المنهجية للتربية النبوية

عرف تطبيق المنهج التوحيدي زمن النبوة، تجليات مختلفة، حسب مراحل الدعوة الإسلامية في عهده ﷺ، فالمنهج التربوي النبوي من حيث الجوهر، واحد، غير متعدد، لكنه اتخذ أشكالاً مختلفة، من حيث التنزيل، وذلك تبعًا لاختلاف المرحلة المكية، عن المرحلة المدنية، واختلاف المرحلة المدنية الأولى، عن المرحلة المدنية الثانية.. إن التنوعات التربوية، التي عرفها المنهج التوحيدي النبوي، عبر هذه المراحل، ما هي إلا اختلافات إجرائية، شكلية، كما سنبين بحول الله، أما المضمون فهو البعد التوحيدي، بكل خصائصه المفصلة من قبل. وههنا من خلال هذا المبحث، سنعمل على توضيح وبيان الاختلافات التنزيلية للمنهج التوحيدي، حسب المراحل الثلاث للتربية النبوية:

(أ) المرحلة الأرقمية :

تميزت التربية التوحيدية في المرحلة المكية للدعوة الإسلامية، ببنائها الأرقمي.. و(الأرقمية) مصطلح، نعبر به عن المنهج التربوي، الذي سار عليه الرسول ﷺ في تربية الجيل الأول من الصحابة، بدار الأرقم بن أبي

الأرقم، قبل الهجرة إلى المدينة المنورة، حيث كان يجتمع بأصحابه، أولاً في الشعاب سراً. وبعد حصول مواجهات بينهم وبين الكفار، انتقل بهم رسول الله ﷺ إلى دار الأرقم المخزومي، على الصفا[1].

والتربية الأرقمية: هي التكوين المقصود به صناعة العقلية القيادية، خاصة، من خلال المتابعة الدقيقة لكل فرد على حدة بتشكل شخصيته، تشكيلاً يقوم على منتهى صفتي القوة والأمانة، ومن هنا لم تكن الأرقمية تُعنى بإنتاج العقلية الجندية، إلا بقدر ما هي طريق لاكتساب العقلية القيادية فيما بعد. وفي هذا الصدد يقول الدكتور أكرم ضياء العمري: «وكان الرسول ﷺ، يربّي أصحابه على عينه، ويوجههم نحو توثيق الصلة بالله، والتقرب إليه بالعبادة... تمهيداً لحمل زمام القيادة، والتوجيه في عالمهم... فالعشرات من المؤمنين في هذه المرحلة التاريخية، كانت أمامهم المهمات الجسيمة، في تعديل مسار البشرية»[2].

والمادة التربوية التي كانت معتمد الجيل الأول -كما أسلفنا- كانت هي القرآن. وللقرآن المكي طبيعة خاصة من الناحية التربوية، فهو كان يسهم بشكل مباشر في تكوين العقلية القيادية، ويساعد على ذلك، إذ التشريع المكي في الغالب، كان كليات ابتدائية، وعزائم تكليفية.

يقول الإمام الشاطبي: «وهذا كله ظاهر لمن نظر في الأحكام المكية،

---

(١) الرحيق المختوم، ٨٠.

(٢) السيرة النبوية الصحيحة، ١٥٩/١.

مع الأحكام المدنية، فإن الأحكام المكية مبنية على الإنصاف من النفس، وبذل المجهود في الامتثال، بالنسبة إلى حقوق الله أو حقوق الآدميين. أما الأحكام المدنية فمنزلة في الغالب على وقائع، لم تكن فيما تقدم، من بعض المنازعات، والمشاحَّات، والرخص، والتخفيفات، وتقرير العقوبات، في الجزئيات لا الكليات، فإن الكليات كانت مقررة محكمة في مكة»[١].

ثم قال: «كان المسلمون قبل الهجرة، آخذين بمقتضى التنزيل المكي، على ما أداهم إليه اجتهادهم، واحتياطهم، فسبقوا غاية السبق، حتى سموا السابقين بإطلاق. ثم لما هاجروا إلى المدينة، ولحقهم في ذلك السبق من شاء الله من الأنصار، وكملت لهم بها شعب الإيمان، ومكارم الأخلاق، وصادفوا ذلك وقد رسخت في أصولها أقدامهم، فكانت المتممات أسهل عليهم، فصاروا، بذلك نوراً، حتى نزل مدحهم، والثناء عليهم، في مواضع من كتاب الله، ورفع رسول الله ﷺ من أقدارهم، وجعلهم في الدين أئمة، فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة»[٢].

فواضح من خلال هذين النصين، أن القرآن المكي، كان له أثر كبير في تخريج الطاقات القيادية من الصحابة الأوائل خاصة، وذلك لما له من طبيعة كلية، مبنية على عزائم ابتدائية.

---

(١) الموافقات، ٢٣٦/٤-٢٣٧.

(٢) السابق، ٢٣٩/٤.

وهو أمر طبيعي، فكل دعوة كانت في مرحلة التأسيس، لابد لها من السعي إلى تربية الخلايا الأولى، التي سيتولى أفرادها مهمة الإنتاج، والاستيعاب، فيما بعد؛ فيكون التأسيس التربوي الأول بطبعه، تأسيسًا قياديًا، بالدرجة الأولى. ووعيًا من الرسول ﷺ بهذا الهدف، كان يتحرى في دعوته أول الأمر، من تبدو عليه مخايل العبقرية القيادية، ورغم أن الدعوة كانت منذ انطلاقتها الأولى لكل الناس، إلا أنه عليه الصلاة والسلام، كان يسير وفق منهج القرآن المكي، في بناء القادة أساسًا، سواء كان المدعو من الفقراء، أو الأغنياء، وسواء كان من السادة، أو من الأرقاء، حتى إذا أسلم الرجل، من أي شريحة اجتماعية كان، سعى به تربويًا، نحو هذا الاتجاه. وثمة نصوص حديثية تشير إلى هذا المعنى، كما في قوله ﷺ: «**خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا**»(١)، وقوله ﷺ: «**اللهم أعز الإسلام بعمر**»(٢)، وفي رواية: «**اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك: بأبي جهل أو بعمر**»(٣).

وقصة ابن أم مكتوم مع الرسول ﷺ أيضًا، تبين هذا المعنى لا عكسه كما قد يبدو، ذلك أن إعراض الرسول ﷺ عنه، لانشغاله بدعوة بعض عظماء قريش، لم يكن لتفضيل غيره عليه، كما يقول ابن كثير: «وكان ممن

---

(١) متفق عليه.

(٢) أخرجه الحاكم بسند صحيح، فتح الباري، ٤٨/٧.

(٣) رواه الترمذي، وقال، حسن صحيح، وصححه ابن حبان أيضًا، فتح الباري، ٤٨/٧.

أسلم قديمًا، فجعل يسأل رسول الله ﷺ، وود النبي ﷺ، أن لو كف ساعته تلك، ليتمكن من مخاطبة ذلك الرجل، طمعًا، ورغبة، في هدايته، وعبس في وجه ابن أم مكتوم، فأعرض عنه، وأقبل على الآخر»(١).

فنزل القرآن، لا ليبين خطأ المنهج، ولكن ليصوِّب التطبيق، ذلك أن الصفة القيادية، التي ظنها الرسول ﷺ، متوفرة في الرجل المشرك، واستبعدها في هذا الرجل المؤمن لعماه، جعلته يعرض عن ابن أم مكتوم، الذي طلب الاستزادة في العلم، ويقبل على مَن ظن أن الإسلام يتقوى بإسلامه، فنبهه القرآن معاتبًا: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ (عبس:٣)، فيصبح من النوعية، التي تبحث عنها، وتتحراها. وذلك الذي كان فعلاً، فقد أخرج البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنهما، قال في سياق الحديث، عن أوائل المهاجرين: «أول من قدم علينا مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانوا يقرئون الناس»(٢)، فكان رغم عاهته رضي الله عنه، داعية إلى الله، مجاهداً، رائداً من رواد الدعوة الأوائل، معلمًا، وقائداً، ولم يكن خاملاً، ولا مستهلكًا، لكنه كان منتجًا فاعلاً. ولذلك كان النبي ﷺ يستخلفه أميراً على المدينة، إذا خرج غازيًا(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير، ٧٣٨/٤.

(٢) قال ابن حجر: «وفي رواية الأصيلي، وكريمة: (فكانا يقرئان الناس)، وهو أوجه»، فتح الباري، ٢٦١/٧.

(٣) تفسير الطبري، ٢٥/١٥.

بل لقد كان يخرج بنفسه، إلى القتال أحيانًا، قال أنس رضي الله عنه: «فرأيته يوم القادسية، عليه درع، ومعه راية سوداء»[١].

ويُذكر عنه رضي الله عنه، أنه كان يقول لأصحابه: في المعركة: «أقيموني بين الصفين، وحملوني اللواء أحمله لكم، واحفظه، فأنا أعمى، لا أستطيع الفرار»[٢]، وقد وجد بعد ذلك صريعًا عند انتهاء معركة القادسية، يعانق راية المسلمين شهيداً[٣]، وهو فوق ذلك كله مؤذن رسول الله ﷺ، إلى جانب بلال بن رباح، رضي الله عنه، وهكذا فقد تزكّى ابن أم مكتوم فعلاً، واستفاد حقًا من التربية الأرقمية الأولى، وتحقق هدفها فيه.

إن المنهج الأرقمي، المبني على نظام الجلسة التربوية، ومدارسة النصوص القرآنية، والحديثية، حيث كان الرسول ﷺ يشكل شخصيات المتربين، من أصحابه الأوائل، فَرْدًا، فَرْدًا، ويصنعهم على عينه... قلتُ: ذلك المنهج، هو الذي خرَّج قادة الدعوة الإسلامية الأوائل. فالعبقرية القيادية، لم نرها في الغالب الأعم، إلا في شخصيات المهاجرين السابقين، فهم الخلفاء الراشدون، وهم الفقهاء المعلمون، والمستنبطون المجتهدون، ولذلك حينما اختلف المهاجرون والأنصار حول خلافة الرسول ﷺ بُعَيد وفاته، قال أبو بكر الصديق، وهو يعلم ما يقول: «نحن الأمراء، وأنتم الوزراء» ردًا على قولهم:

---

(١) المصدر السابق، الصفحة نفسها.
(٢) صور من حياة الصحابة، ١٥٣.
(٣) السابق، ١٥٤.

«منا أمير، ومنكم أمير»[1]، وكان من خطبته رضي الله عنه يومئذ: «أنتم إخواننا في كتاب الله، وشركاؤنا في دين الله، وأحب الناس إلينا، فأنتم أحق الناس بالرضا بقضاء الله، والتسليم لفضيلة إخوانكم، وأن لا تحسدوهم على خير»[2].

ومدارس الفقه الإسلامي، والتفسير، والتشريع، والقضاء، ومعظم الأصول العلمية للدولة الإسلامية، إنما أسسها المهاجرون الأرقميون خاصة، بدءاً بالخلفاء الراشدين، كفقهاء، وقضاة، مجتهدين، وانتهاءً بالشخصيات الأرقمية الأخرى، الذين صاروا، كما قال الشاطبي: «أئمة، فكانوا هم القدوة العظمى في أهل الشريعة»[3].

وأما الأنصار، فقد كانت لهم الجندية، والاتباع، في الغالب الأعم، فهم أهل نصر، ومبادرة، وجهاد. وهذا لا يعني أن أحداً من الأنصار لم تنبغ عبقريته إطلاقاً، وإنما هناك قلائل نبغوا، وصاروا قادة في مجال ما، كمعاذ بن جبل، فقيه الأمة، الذي كان كما قال ﷺ فيه: أعلم الأمة بالحلال والحرام[4]، ولذلك أرسله معلماً، ومربياً، وقائداً، لأهل اليمن .. والسبب

(١) صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، حديث رقم ٣٦٦٨.

(٢) فتح الباري، ٧/٣١.

(٣) الموافقات، ٤/٢٣٩.

(٤) قال ﷺ: «وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل»، جزء حديث، رواه أحمد، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، وابن حبان، والحاكم، والبيهقي، وصححه الألباني، في (ص ج ص)، ٨٩٥، والسلسلة الصحيحة، ١٢٢٤.

في ذلك، يرجع إلى ما طبق من الأرقمية في المدينة المنورة، إلى جانب المنهج المنبري، كما سوف نوضح بحول الله، بيد أن المقصود من الأحكام السالفة واللاحقة، هو العموم الغالب، لا العموم القطعي التام.. هذا، وقد كان المنهج الأرقمي، يعتمد أساسًا على النص القرآني، لاستيعاب الناس بالإسلام، وكذا لترقيتهم في مدارج الإيمان.

ويروي ابن هشام حوار أبي الوليد عتبة بن ربيعة، مع الرسول ﷺ، حينما جاء مفاوضًا باسم قريش، فقال مقالته: «حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله ﷺ يستمع منه، قال: «**أقد فرغت يا أبا الوليد؟**» قال: «**فاستمع مني**»، قال: افعل، فقال: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ حمٓ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ...﴾ (فصلت: ١ - ٢)، ثم مضى رسول الله ﷺ، فيها، يقرؤها عليه، فلما سمعها منه عتبة، أنصت لها، وألقى يديه خلف ظهره، معتمداً عليهما، يسمع منه، ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها، فسجد... فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله، لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعتُ قولاً، والله ما سمعتُ مثله قَطُّ، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة! يا معشر قريش! أطيعوني، واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعتُ منه، نبأ عظيم!»[1].

---

(١) سيرة ابن هشام، ٣١٤/١.

فالرسول ﷺ إذن، كان يستوعب الناس للإسلام بالقرآن أساسًا، ورغم أن أبا الوليد لم يُسلم، إلا أن تأثره بالقرآن واضح جدًا، من خلال النص المذكور، ولذلك فقد كان الرسول ﷺ يدعو إلى الله، بكلام الله أساسًا.

وقد حكى عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، انبهار جمع من كفار قريش بالقرآن الكريم، حينما تلاه رسول الله ﷺ، عليهم -في حديث متفق عليه- قال: «قرأ النبي ﷺ النجم بمكة، فسجد فيها، وسجد من معه»، وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس».. قال ابن مسعود: «غير شيخ أخذ كفًا من حصى، أو تراب، فرفعه إلى جبهته، وقال: يكفيني هذا، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا»[1].

وقد أسلم الناس في المرحلة المكية، بسبب سماعهم القرآن.. قال عمر ابن الخطاب، رضي الله عنه: «فلما سمعتُ القرآنَ، رق له قلبي، فبكيت، ودخلني الإسلام!»[2].. وقال الطفيل بن عمرو الدَّوْسِي، وقد حشا في أذنيه كُرْسُفًا، لئلا يسمع القرآن: «فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله. قال: فسمعت كلامًا حسنًا، قال: فقلت في نفسي: واثكل أمي، والله إني لرجل لبيب شاعر، ما يخفى عليّ الحسن من القبيح، فما يمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول؟... قال: فعرض عليّ رسول الله ﷺ الإسلام، وتلا عليّ

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

(٢) سيرة ابن هشام، ١/٣٦٩.

القرآن، فلا والله ما سمعتُ قولاً قط أحسن منه، ولا أمرًا أعدل منه، قال: فأسلمتُ»[1].

وحكت أمُّ سلمة رضي الله عنها، أن النجاشي استقرأ جعفرًا، رضي الله عنه القرآن، «قالت: فقرأ عليه صدراً من (كهيعص).. قالت: فبكى النجاشي، حتى اخْضَلَّت لحيته، وبكت أساقفته حتى أَخْضَلُوا مصاحفَهم، حين سمعوا ما تلا عليهم»[2].

وجاء وفد من نصارى الحبشة إلى الرسول ﷺ، لما سمعوا به، فتلا عليهم الرسول ﷺ كلام الله، «فلما سمعوا القرآن، فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا لله، وآمنوا به»[3].

وعندما التقى رسولُ الله ﷺ، وفد الخزرج بمكة، أول مرة، قال لهم: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: بلى. فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم الإسلام، وتلا عليهم القرآن... ثم انصرفوا عن رسول الله ﷺ، راجعين إلى بلادهم، وقد آمنوا، وصدّقوا[4].

وكذلك كان مصعب بن عمير، رضي الله عنه، يطبق نفس المنهج بالمدينة، قبل هجرة الرسول ﷺ إليها، فقد حكى ابن هشام عن ابن إسحاق،

---

(١) السابق، ١/٤٠٨.
(٢) السابق، ١/٣٥٩.
(٣) السابق، ١/٤١٨.
(٤) السابق، ٢/٣٨.

قال: «حدثني عبد الله بن المغيرة بن معيقب، وعبد الله بن أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم، أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير، يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر... وسعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ، سيدا قومهما، من بني عبد الأشهل، وكلاهما مشرك على دين قومه، فلما سمعا به، قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير، لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا، لِيُسَفِّهَا ضعفاءَنا، فازجرهما، وانههما عن أن يأتيا دارينا... فأخذ أُسيد بن حُضير حربته، ثم أقبل إليهما... فقال له مصعب: أوَ تجلس، فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته، كف عنك ما تكره؟ قال: أنصفت! ثم ركز حربته، وجلس إليهما، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. فقالا، فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم به، في إشراقه، وتسهله، ثم قال: ما أحسن هذا الكلام، وأجمله... وشهد شهادة الحق ... ثم أخذ حربته، ثم انصرف إلى سعد... فقام سعد مغضبًا... فأخذ الحربة من يده، ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئًا، ثم خرج إليهما... فقال له مصعب: أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا، ورغبت فيه، قبلته، وإن كرهته، عزلنا عنك ما تكره، قال سعد: أنصفت. ثم ركز الحربة، وجلس، فعرض عليه الإسلام، وقرأ عليه القرآن، قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام، قبل أن يتكلم، لإشراقه وتسهله... وتَشَهَّدَ شهادة الحق!»(١).

---

(١) السابق، ٢/٤٣-٤٥.

وهكذا، نرى أن القرآن، كان هو المادة الأساس، التي اعتمدت في إدخال الناس إلى الإسلام، وأن ربطهم منذ اللحظة الأولى، كان بالله مباشرة، من خلال كتابه العزيز. ثم إن الرسول ﷺ اعتمده وحده كمادة تربوية، للترقي بأصحابه في مقامات الإيمان، كما اعتمد نصوصه المكية في تشكيل شخصياتهم، وبنائها، تربوياً، في الجلسات الأرقمية العظيمة: «وكانت الآيات، وقطع السور، التي تنزل في هذا الزمان، آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة، تتناسق مع ذلك الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا.. تصف الجنة والنار، كأنهما رؤى العين.. تسير بالمؤمنين في جو آخر، غير الذي فيه المجتمع البشري آنذاك»[1].

فكانت سور، من مثل سورة الفرقان، التي تصف عباد الرحمن بأنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ (الفرقان:٦٣)، وتحدد لهم مجموعة من الصفات الربانية، من قيام لليل، وخوف من عذاب الله، وتوحيد له سبحانه، وعدم قتل النفس التي حرّم الله إلا بالحق، وإنفاق في سبيله، وحفظ للفروج من الزنى، وترك شهادة الزور، واللغو، ونحو ذلك. كما كانت سور أخرى، تُثَبِّت الصحابة الأرقميين في محنهم بمكة، مثل سورة البروج، التي كما قال الأستاذ سيد قطب، رحمه الله: «تشع حولها أضواء قوية، بعيدة المدى، وراء المعاني، والحقائق

---

(١) الرحيق المختوم، ٦٦.

المباشرة، التي تعبر عنها نصوصها، حتى لتكاد كل آية –وأحيانًا كل كلمة في الآية– أن تفتح كُوة على عالم مترامي الأطراف، من الحقيقة»[1].

فكان القرآن إذن، هو المادة التربوية للاستيعاب الداخلي والخارجي معًا، عليه يقوم المنهاج النبوي التربوي، وتميزت مرحلته المكية بالتطبيق الأرقمي، من حيث الاصطفائية، ثم التتبع الدقيق، والمعالجة الخاصة، لكل فرد على حدة، قصد صناعة القادة من الجيل الأول، الذين أرسوا قواعد الدولة الإسلامية بعد.

وكما كان ذلك ساريًا في مكة قبل الهجرة، كان ساريًا أيضًا في المدينة المنورة، سواء تعلّق الأمر بالاستيعاب الخارجي، كما تبين مما سبق، أو الاستيعاب الداخلي، والتزكية الفردية، من خلال الجلسات الأرقمية. وقد روى البخاري في صحيحه، كما أسلفنا، أن أول مَن قدم المدينة مصعب بن عمير، وابن أم مكتوم، وكانا يُقرئان الناس القرآن.

وروى ابن هشام قال: «قال ابن إسحاق: فلما انصرف عنه ﷺ القوم (يعني وفد الأنصار) بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير... وأمر أن يُقرئهم القرآن، ويُعلّمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يسمى مصعب بالمدينة: المقرئ[2].

---

(١) الظلال، ٣٨٧١/٦.

(٢) سيرة ابن هشام، ٤٢/٢.

فمصعب رضي الله عنه، كان يطبق نظام الجلسات، لمدارسة القرآن، وهو يشكل شخصيات قيادية من الأنصار. وكان ذلك نقلاً للمنهج الأرقمي الذي بقي رسول الله ﷺ بمكة، يمارسه في تربيته للناس، بيد أن ذلك لم يستمر على حاله طويلاً، إذ سرعان ما هاجر الرسول ﷺ، إلى المدينة، لا ليلغي المنهج الأرقمي، ولكن ليشفعه بالمنهج المنبري، الذي صار أكثر اعتماداً من الأول، في تربية المسلمين وتزكيتهم. وهنا يزول ما يحصل من تعارض، حينما نجد أن ثمة تطبيقات للأرقمية بالمدينة المنورة من جهة، وأن قادة من الأنصار ، تخرجوا عليه، وكانوا أئمة في مجالات أخرى من مجالات الدين.

بيد أن الغالب الأعم، على التربية التوحيدية بالمدينة المنورة، هو تطبيق المنهج المنبري، الذي كان يصنع ما يمكن تسميته بالرأي العام الإسلامي.. فما هي خصائص هذا المنهج إذن؟

(ب) المرحلة المنبرية :

(المنبرية) نسبة إلى المِنبَر، وهي إشارة إلى ما قام به رسول الله ﷺ، من تربية للصحابة من على المنبر، الذي لم يظهر في حياة الدعوة إلا بالمدينة.. وخطبة الجمعة لم تشرع إلا بعد الهجرة كما هو معلوم.

فالتربية المنبرية، توحيدية في الجوهر، لأنها تقوم على اعتماد النص القرآني أساساً، وما يفسره ويبينه من سنة الرسول ﷺ، بيد أنها لا تقوم على

نظام الجلسة، ولا تتعامل مع قوم أسلموا، فرداً فرداً، وانتُقوا لهذا الأمر انتقاءً، وإنما فيهم من أسلم نفاقًا، ومن أسلم خوفًا، كالأعراب. ولكن فيهم من أسلم إيمانًا، وصدقًا.

وبما أن الجلسة الأرقمية، لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الضخم من المسلمين بالمدينة، من ناحية، وبما أن ما يتطلبه المجتمع من العقليات القيادية، قد تخرج منهم الكثير بمكة، وبعض الأنصار ممن تربوا على يد مصعب بن عمير قبيل الهجرة، من ناحية أخرى، فقد اتجه النبي ﷺ إلى تشكيل الرأي العام الشعبي، تشكيلاً إسلاميًا، من أجل صناعة عقلية جندية فاعلة، مبادرة، ومطيعة، فلم يعد خطابه التربوي ﷺ متوجهًا إلى كل فرد، ومقتصراً عليه، وإنما صار متوجهًا إلى عموم الناس، من خلال خطبة الجمعة وغيرها، فكان يربي بقوله مثلاً: «**ما بال قوم**»، أو «**ما بال أقوام**»، و «**يا أيها الناس**»... إلى غير ذلك من العبارات، التي اشتهرت عنه ﷺ، والتي هي من تقنيات الأسلوب الخطابي.

وبقي المنهج الأرقمي من حظ القلائل، الذين تبينت ملامحهم القيادية، من أهل المدينة وغيرهم، ولكن الخطبة أو (المنبرية)، كانت هي تربية العموم من أهل المدينة، وما حولها، فهي خطاب عام مطلق، يهدف إلى تصحيح الخطأ، أو إبلاغ المفهوم الصحيح، إلى عموم الناس، لتصحيح السلوك الاجتماعي العام. من ذلك، على سبيل المثال، ما أخرجه البخاري، من حديث عائشة رضي الله عنها، قالت:

« جاءت بريرة، فقالت: إني كاتبت أهلي على تسع أواق، في كل عام أوقية، فأعينيني، فقالت عائشة: إن أحب أهلك أن أعدها لهم عدة واحدة، وأعتقك، فعلت، فيكون ولاؤك لي. فذهبت إلى أهلها، فأبوا ذلك عليها. فقالت: إني قد عرضت ذلك عليهم، فأبوا، إلا أن يكون الولاء لهم.. فسمع بذلك رسول الله ﷺ، فسألني، فأخبرته، فقال: «**خذيها فأعتقيها، واشترطي لهم الولاء، فإن الولاء لمن أعتق**». قالت عائشة: «فقام رسول الله ﷺ في الناس، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «**أما بعد، فما بال رجال منكم، يشترطون شروطاً، ليست في كتاب الله؟ فأيما شرط كان ليس في كتاب الله، فهو باطل، وإن كان مائة شرط، فقضاء الله أحق، وشرط الله أوثق، ما بال رجال منكم، يقول أحدهم: أعتق يا فلان، ولي الولاء؟ وإنما الولاء لمن أعتق**»[1].

فواضح من النص، أن الرسول ﷺ مارس التربية العامة، ووجَّه الرأي العام، بإطلاق الخطاب، وعدم تقييده، ومعالجة السلوك الخاطئ بأسلوب الخطبة، لا بأسلوب الجلسة، المتتبع لكل الجزئيات، المكونة للشخصية، كما هو الحال في الأسلوب الأرقمي، ولكن الخطبة إنما هي توجيه عام، كلما ظهرت ثغرة ما، أو انحراف ما، قام رسول الله ﷺ على المنبر خطيباً.. هكذا كانت التربية المنبرية إذن، عامة مطلقة، تقصد إلى توجيه السلوك الاجتماعي العام، وتربية المجتمع، من حيث هو كلٌّ، لا من حيث هو أفراد،

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

ولذلك لم يكن القصد، الاقتصار على إنتاج القيادات، كما ذكرنا، ولكن إنتاج الجندية المطيعة المؤمنة أيضاً.

كما يتضح من النص، أن الرسول ﷺ، لم يكن يخطب يوم الجمعة فقط، بل كلما دعت الحاجة التربوية لذلك، ويؤكده ما رواه مسلم عن أنس، حينما أكثر الناس سؤال رسول الله ﷺ، فيما لا ينفعهم.. وللبخاري، عن ابن عباس، رضي الله عنهما: «كان قوم يسألون رسول الله ﷺ استهزاءً، فيقول الرجل: مَن أبي؟ ويقول الرجل تضل ناقته: أين ناقتي؟» قال أنس:

«إن رسول الله ﷺ، خرج حيث زاغت الشمس، صلى بهم صلاة الظهر، فلما سلم، قام على المنبر، فذكر الساعة، وذكر أن قبلها أموراً عظامًا، ثم قال: «**من أحب أن يسألني عن شيء، فليسألني عنه، فوالله لا تسألوني عن شيء، إلا أخبرتكم به، ما دمت في مقامي هذا**».. قال أنس بن مالك: فأكثر الناس البكاء، حين سمعوا ذلك من رسول الله ﷺ، وأكثر رسول الله ﷺ من أن يقول: «**سلوني**»، فقام عبد الله بن حُذافة، فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ قال «**أبوك حُذافة**».. فلما أكثر رسول الله ﷺ من أن يقول: «**سلوني**»، برك عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً.. قال: فسكت رسول الله ﷺ، حين قال عمر ذلك، ثم قال رسول الله ﷺ: «**أوْلَى، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لقد عُرضت عليَّ الجنة والنار آنفًا، في عرض هذا الحائط، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر**»[1].

---

(١) رواه الشيخان، واللفظ لمسلم.

وفي رواية أخرى عن أنس قال: فخطب، فقال: «**عُرضت عليَّ الجنة والنار، فلم أرَ كاليوم في الخير والشر، ولو تعلمون ما أعلم، لضحكتم قليلاً، ولبكيتم كثيراً**»، قال: فما أتى على أصحاب رسول الله ﷺ، يوم أشد منه! قال: غطّوا رؤوسهم، ولهم خَنين[١]... فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ﴾(المائدة: ١٠١)[٢].

هكذا إذن يتبين أن الرسول ﷺ، كان يعتمد على الخطبة، ولو في غير الجمعة، كما في النصِّ، لتصحيح المفاهيم، وتربية السلوك الجماعي للأمة، وتلك منهجية المرحلة المدنية أساسًا.. وقد كانت خطبه ﷺ نصوصًا من القرآن، ونصوصًا من حديثه ﷺ، وربما كانت أغلبها قرآنًا، فعن أخت عمرة بنت عبد الرحمن قالت: «أخذت ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ من فِيِّ رسول الله ﷺ، يوم الجمعة، وهو يقرأ بها على المنبر، في كل جمعة»[٣].

وعن صفوان بن يعلى، عن أبيه، أنه سمع النبي ﷺ يقرأ على المنبر: ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ﴾(الزخرف: ٧٧)[٤].

وربما كانت التربية المنبرية أحيانًا، عبارة عن إشارات خطابية من غير خطبة، أي كلمات من جوامعه ﷺ، ذات ومضات خالدة، يلقيها الرسول

---

(١) الخنين: بالخاء المعجمة، هو البكاء مع غُنَّة، وانتشقاق الصوت من الأنف.
(٢) رواه مسلم.
(٣) رواه مسلم.
(٤) رواه مسلم.

عليه الصلاة والسلام على الناس، فتتلقاها قلوبهم، حتى إذا تفرّقوا، كانت لها مواجد تبعث على التأمل والتفكير، مما ينمي التكوين التربوي للفرد بصورة ذاتية، وذلك نحو ما رواه عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال: «صلى بنا النبي ﷺ العشاء، في آخر حياته، فلما سلّم قام فقال: **«أرأيتكم ليلتكم هذه، فإن رأس مائة سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»**[1].

فهذه الإشارة النبوية المختصرة، خطبة مصغرة جداً، فهي كلمة ألقاها ﷺ، وهو واقف، لفظها قليل، مُتَنَاهٍ جداً، غير أن معناها عظيم، ورهيب، ينبه إلى إحدى الحقائق الكبيرة، من حقائق الحياة البشرية، في هذا العالم، وهي حقية الموت على كل نفس، لكن الأسلوب الذي عُرضت به، أسلوب منبري خطابي، يُقَرِّبها من الشعور تقريباً حسابياً، حتى تكون رأي العين، فيكون لها من الأثر التربوي على السامعين، ما لا تنتهي تداعياته، إلا بانتهاء حياتهم.

ومن هنا كان ارتباط الأنصار، أو أبناء المدرسة المنبرية، بنصوص القرآن والسنة، هو كارتباط المهاجرين، وذلك بسبب توحيدية المنهج المنبري، أي اعتماده على النص القرآني أولاً، والنص الحديثي ثانياً.

وحديث عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، دال على هذا الارتباط، قال: «كان لي جار من الأنصار، فكنا نتناوب النزول إلى رسول الله ﷺ،

---

(١) متفق عليه، واللفظ للبخاري.

فينزل يومًا، وأنزل يومًا، فيأتيني بخبر الوحي، وغيره، وآتيه بمثل ذلك»(١).
وقد سبق بيان سياق هذا الحديث، حيث كان الرجلان مرابطيْن بضاحية المدينة.

ولقد كان القرآن متتبعًا لأحوال الأنصار، كما كان متتبعًا لأحوال المهاجرين قبل هجرتهم، ونزلت نصوص خاصة، تعالج واقعهم، وتصحح ما اعوج من تصرفاتهم، فيقرؤها النبي ﷺ، مربيًا إياهم عبر المنهج المنبري غالبًا.. أخرج مسلم، من طريق أسلم بن عمران، قال: «كنا بالقسطنطينية، فخرج صف عظيم من الروم، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم، حتى دخل فيهم، ثم رجع مقبلاً، فصاح الناس: سبحان الله! ألقى بيده إلى التهلكة! فقال أبو أيوب (الأنصاري، رضي الله عنه): أيها الناس! إنكم تؤولون هذه الآية على هذا التأويل - يعني قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (البقرة: ١٩٥) - وإنما نزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار: أنَّا لما أعزّ الله دينه، وكَثُر ناصروه، قلنا بيننا سراً: إن أموالنا قد ضاعت، فلو أنا أقمنا فيها، وأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله هذه الآية، فكانت التهلكة: الإقامة التي أردناها»(٢).

وهكذا تخرج الأنصار من مدرسة توحيدية نبوية، فارتبطوا بالله عز

---

(١) متفق عليه، واللفظ لمسلم.
(٢) رواه مسلم.

وجل، صادقين موقنين، واستوعبوا مذهبية الإسلام جيداً، من خلال القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، وكان للمنبر النبوي أثره التربوي العظيم، في حياتهم الإيمانية، فكانوا جنوداً مطيعين، وحماة للإسلام، ولرسوله الكريم، مبادرين إلى الخير، فاعلين، فهم طليعة القتال في كل مكان، وهم الذين حينما قال الرسول ﷺ : «**أشيروا عليّ أيها الناس**»، قبيل معركة بدر، قال قائلهم سعد بن معاذ رضي الله عنه، وعنهم أجمعين:

«فقد آمنّا بك، فصدّقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا، ومواثيقنا، على السمع والطاعة لك، فامضِ يا رسولَ الله لما أردت، فنحن معك، فوالذي بعثك بالحق، لو استعرضت بنا البحر، فخضته لخضناه معك، ما تخلّف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدوّنا غداً.. إنا لصُبُرٌ في الحرب، صُدُقٌ في اللقاء، لعل اللهَ يريك منا ما تَقَرُّ به عينك، فَسِرْ بنا على بركة الله»(١)، فسُرَّ النبي ﷺ بذلك، وبشرهم بالنصر.

وهم الذين استشهدوا تواتراً في معركة أحد، بين يدي الرسول ﷺ، قال صفي الرحمن المباركفوري: «اتفقت جل الروايات على أن قتلى المسلمين كانوا سبعين، وكانت الأغلبية الساحقة من الأنصار، فقد قُتل منهم خمسة وستون رجلاً... وأما شهداء المهاجرين فكانوا أربعة فقط»(٢).

---

(١) السيرة النبوية الصحيحة، ٣٥٩/٢، والرحيق المختوم، ١٨٩.

(٢) الرحيق المختوم، ٢٥٧-٢٥٨.

ولِمَا يعلمه النبي ﷺ من إخلاصهم، وجنديتهم المتيقظة الفاعلة، وربما أيضًا لما يعلمه من تبعية أغلبهم للمهاجرين، من الناحية القيادية، والسياسية العامة، فقد أوصى بهم خاصة، وذلك في مرضه الذي مات فيه ﷺ، إذ خرج عاصبًا رأسه، حتى جلس على المنبر، فكان مما قال ﷺ: «**أيها الناس.. إن الناس يكثرون، وتقل الأنصار، حتى يكونوا كالملح في الطعام، فمن ولي منكم أمرًا يضر فيه أحدًا، أو ينفعه، فليقبل من محسنهم، ويتجاوز عن مسيئهم**»[1].

وفي رواية أخرى: «**أوصيكم بالأنصار، فإنهم كَرِشي وعَيْبَتي**[2]، **وقد قَضوا الذي عليهم، وبقيَ الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مسيئهم**»[3].

وهكذا كان للتربية المنبرية التوحيدية، أثرها التاريخي في تخريج أعظم جندية إسلامية في التاريخ، جاهدت تحت لواء رسول الله ﷺ، في كل الغزوات، وتحت ألوية الخلفاء الراشدين، في حروب الردة، والقادسية، وغيرها، وبقوا على حالهم حتى فيما بعد، إلى أن انقرض جيلهم، رضوان الله عليهم.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي جماعتي وخاصتي التي اعتمدها في أموري.

(٣) السابق.

فهذا أبو أيوب الأنصاري، رضي الله عنه، يخرج جنديًا عاديًا، في آخر حياته، على جلالة قدره، في جيشٍ قائدُهُ يزيد بن معاوية، لما خرج المسلمون لفتح القسطنطينية، فيصاب رضي الله عنه في المعركة، ويطلب من المسلمين إذا مات، أن يحملوا جثته على فرسه، ويغوصوا به ما استطاعوا في أرض العدو، حتى إذا أوغلوا جيداً، دفنوه هناك.. وما زال قبره رضي الله عنه في استامبول شاهداً إلى اليوم[1].

(جـ) المرحلة العلمية:

كان من بين آخر ما نزل من القرآن، سورة التوبة[2]، ومنها قوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ (التوبة: ١٢٢)، وذلك أن المنهج التربوي التوحيدي، صار يكتسي وجهًا علميًا وتعليميًا، في أواخر حياة الرسول ﷺ، حيث حصل تراكم من ناحيتين:

الأولى: ناحية النصوص القرآنية والحديثية، فقد مضى على عمر الدعوة

---

(١) رجال حول الرسول ﷺ، ٤٠٧.

(٢) مباحث في علوم القرآن للقطان، ٧٠.

ما يربو على العشرين عامًا، مما يجعل تنزيل النصوص على الواقع، يزداد عمقًا ، ويحتاج بصرة واجتهاداً، فهناك المكي والمدني من القرآن، والناسخ والمنسوخ، من القرآن والسنة معًا، والتفصيلات السنية، المبيِّنة لمجملات القرآن. . .الخ.

والثانية: ناحية الأفواج الهائلة، والأعداد الكبيرة، التي دخلت الإسلام بعد فتح مكة، مما يجعل الاستيعاب التربوي لها جميعًا، بالمنهج الأرقمي، أو المنبري فقط، غير ممكن تمامًا.

فعن عمرو بن سلمة، رضي الله عنه، قال: «كانت العرب تَلَوَّمُ[١] بإسلامهم الفتحَ، فيقولون: اتركوه وقومه، فإنه إن ظهر عليهم ، فهو نبي صادق. . فلما كانت وقعة أهل الفتح، بادر كل قوم بإسلامهم»[٢].

وقال المباركفوري معلقًا: «هذا الحديث يدل على مدى أثر فتح مكة في تطوير الظروف، وتعزيز الإسلام، وتعيين الموقف للعرب، واستسلامهم للإسلام، وتأكد ذلك، أي تأكد بعد غزوة تبوك، ولذلك نرى الوفود تقصد المدينة تترى في هذين العامين –التاسع والعاشر– ونرى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا، حتى إن الجيش الإسلامي، الذي كان قوامه عشرة آلاف

---

(١) تَلَوَّمَ، يتَلَوَّم، مَكَثَ، وانتظر، مختار الصحاح، مادة (لوم).
(٢) رواه البخاري.

مقاتل في غزوة الفتح، إذا هو يزخر في ثلاثين ألف مقاتل في غزوة تبوك، قبل أن يمضي على فتح مكة عام كامل.. ثم نرى في حجة الوداع، بحراً من رجال الإسلام -مائة ألف من الناس، أو مائة وأربعة وأربعون ألفًا منهم- يموج حول رسول الله ﷺ، بالتلبية، والتكبير، والتسبيح، والتحميد، تدوي له الآفاق، وترتج له الأرجاء»[1].

فكان لابد إذن من التفكير في الشكل التنزيلي للمنهج التوحيدي، فالنصوص هي النصوص، قرآنًا كانت أو سنة، لكن أغلب الناس بعد الفتح، لم تتح له الفرصة لفهم مقاصدها الشرعية، في الجلسات الأرقمية، أو اللقاءات المنبرية، فشرع الرسول ﷺ، ينتدب فقهاء الصحابة، لتعليم الناس الإسلام، نصًا وفقهًا.

وقد كان ﷺ يفعل ذلك قبل الفتح طبعًا، لكن معظمه إنما كان بعد، آخر حياته ﷺ، فكان يرسل مع كل وفد من الوفود، التي جاءت تعلن إسلامها، بعد الفتح، من قبائل العرب، رجلاً يقرئهم القرآن، ويعلمهم فقهه من السنة النبوية. وقد أربت الوفود على السبعين وفدًا[2]، وربما أمَّر على الوفد رجلاً منه، على أساس أن يكون أقرأهم لكتاب الله، وأعلمهم بسنة رسوله ﷺ، كما أمَّر عثمان بن أبي العاص الثقفي، على ثقيف، ليعلمهم،

---

(١) الرحيق المختوم: ٤٠٨.
(٢) السابق، ٤٠٨.

«لأنه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام، وتعلّم الدين والقرآن»[١]، وجعل على بني الحارث بن كعب، عمرو بن حزم، قال ابن هشام: «ليفقههم في الدين، ويعلمهم السنة، ومعالم الإسلام»[٢]، وأرسل أبا عبيدة بن الجراح، مع وفد نجران[٣]. كما أرسل معاذ بن جبل، وأبا موسى الأشعري إلى اليمن، كلاً منهما إلى منطقة، ثم قال لهما: «**يسّرا ولا تعسّرا، وبشّرا ولا تنفّرا**»[٤]، ثم إنه ﷺ جعل المسؤولية التعليمية في عنق كل متعلم من الصحابة، بل كل من تعلم، ولو آية.

إن هذه المرحلة من حياة الدعوة الإسلامية، صارت التربية فيها تقوم أساسًا على تبليغ نصوص الإسلام: القرآن أولاً، ثم ما يقوم مقام فهمه وبيانه، وهو الحديث النبوي الشريف، فتكون مدارسة الناس لذلك - علمًا وتعلّمًا - هي التربية، وكان الناس إذا علموا شيئًا، عملوا به، وصارت عملية نقل نصوص الدين، وتربية الناس عليها، وتكوينهم على مبادئها، تُسَمَّىٰ (علمًا)، وصار لمصطلح العلم في هذه المرحلة، رواج كبير، أكثر مما مضى.. وكانت دلالته تنحصر في معرفة النصوص الشرعية، وما يستنبط منها، وصار الناس يسمون كل ما نُقل عن الصحابة رضي الله عنهم، مسندًا إلى رسول

---

(١) الرحيق المختوم، ٤١٢.

(٢) السيرة، ٤/٥٩٤.

(٣) البخاري، كتاب فضائل الصحابة.

(٤) رواه البخاري في المغازي.

الله ﷺ علماً. وبقي هذا الاصطلاح سارياً بهذا المعنى إلى مرحلة التابعين، وأتباعهم، فعن بقية بن الوليد قال: «قال لي الأوزاعي: يا بقية، العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ فليس بعلم»[١].

ولم يكن العلم بهذا المعنى في أواخر حياة الرسول ﷺ يقصد به شيئاً غير العمل. فهو لذلك إذن، تربية. ثم إنه إنما يقوم على مدارسة النصوص الشرعية، وفقهها، كما قلنا، وهو لذلك مرة أخرى توحيد، أو تربية توحيدية.

وقد كان الرسول ﷺ، يرى التربية تأخذ شكلها الجديد، أي تبليغ العلم وتعلمه، فسعى ﷺ إلى الحث على ذلك، وإحاطته بمجموعة من الضوابط، والتوجيهات، حتى لا يزيغ القالب العلمي عن قصده التربوي المحض، ومضمونه التوحيدي الأصيل، فيعطي الأولوية في ذلك لكتاب الله عز وجل، حفظاً وفقهاً، فيقول ﷺ: «**خيركم من تعلّم القرآن وعلمه**»[٢]، ثم يقول عن سنته ﷺ: «**نضّر الله عبداً سمع مقالتي فوعاها، ثم بلغها عني، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى مَن هو أفقه منه**»[٣].

---

(١) جامع بيان العلم، ٣٩/٢.
(٢) رواه البخاري.
(٣) رواه أحمد، وابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦٧٦٥.

والحديث هذا، يشير إلى أن العلم لا يقتصر على نقل النصوص فقط، ولكن يتعداه إلى فقهها، وفهمها. فينحصر العلم وقتذاك، إذن، في القرآن والسنة، والفقه منهما، دون الرأي المحض، وذلك صلب التربية التوحيدية، من حيث المصدرية الشرعية.

ثم مضى الرسول ﷺ، يؤكد أهمية العمل بالعلم، وضرورته بالنسبة للعالم، والمتعلم، على السواء، حتى يحافظ العلم على مغزاه التربوي، الذي نشأ من أجله، فيقول ﷺ في العلم: «**مثل العالم الذي يعلّم الناس الخير، وينسى نفسه، كمثل السراج، يضئ للناس، ويحرق نفسه**»[١]، ويقول عن المتعلم: «**سلوا الله علماً نافعاً، وتعوّذوا بالله من علم لا ينفع**»[٢]، وقال: «**من تعلّم علماً مما يُبتغى به وجه الله، لا يتعلّمه إلا ليصيب به عوضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة**»[٣].

وقال عن هؤلاء وأولئك: «**من تعلّم العلم ليباهي به العلماء، أو يماري به السفهاء، أو يصرف به وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم**»[٤]، وكان هذا التحذير النبوي إنما هو توجيه، حتى يبقى العلم في الناس، قائماً على

---

(١) رواه الطبراني، والضياء، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٥٨٣١.
(٢) رواه ابن ماجه، وابن حبان، وحسنه الألباني في (ص ج ص)، ٣٦٣٥.
(٣) رواه أحمد، وأبو داود، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦١٥٩.
(٤) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦١٥٨.

دوره التربوي أساساً. وهذا هو المصرح به في قوله ﷺ : «**من علّم علماً، فله أجر من عمل به، لا ينقص من أجر العامل**»[1].

وأَبين منه، ما رواه جُبَير بن نُفَير، عن عوف بن مالك الأشجعي، «أن رسول الله ﷺ : نظر إلى السماء يوماً، فقال: «**هذا أوان يُرفع العلم**»، فقال له رجل من الأنصار، يقال له زياد بن لبيد: يا رسول الله! يرفعُ العلم وقد أثبت، ووعته القلوب؟ فقال له رسول الله ﷺ : «**إن كنت لأحسبك من أفقه أهل المدينة**»، ثم ذكر ضلالة اليهود والنصارى، على ما في أيديهم من كتاب الله.. قال جبير: فلقيت شداد بن أوس، فحدثته بحديث عوف، فقال: صدق عوف، ألا أخبرك بأقل ذلك يرفع؟ قلتُ: بلى، قال الخشوع: حتى لا ترى خاشعاً»[2].

فهذا المضمون التربوي للعلم، هو الذي كان يحث عليه الرسول ﷺ، عند انطلاق الحركة العلمية في آخر حياته ﷺ، وانتداب الصحابة لذلك، وإرسالهم إلى جهات مختلفة من الجزيرة العربية، ليتم الاستيعاب التربوي الشامل، لكل المسلمين، في كل مكان.

---

(١) رواه ابن ماجه، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦٣٩٦.

(٢) أخرجه الخطيب البغدادي، في اقتضاء العلم العمل، انظر تهذيبه لأبي عبد الرحمن محمود، ص٢٠، ونص الحديث النبوي، رواه أحمد والترمذي، وابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٦٩٩٠.

بيد أن طبيعة المنهج العلمي، أو التعليمي، كأسلوب من أساليب التربية التوحيدية، كانت هي العمل على تعميق التدين، في أفراد المجتمع، فهماً وتنزيلاً. ويختلف تطبيق ذلك من صحابي لآخر، فمنهم من جعل العلم مضموناً في إطار أرقمي، وهم الصحابة الذين ساروا على منهج الجلسات، بقواعدها التربوية، وهم يعلمون الناس.. ومنهم من بلّغ العلم في إطار منبري، ومنهم من علّمه في إطار(تحديثي)، عابر، لا هو بذا ولا هو بذاك، ولكن القصد منه كان مجرد التبليغ. ولذلك تخرج من أجيال التابعين، العلماء القياديون، والجنود العاملون، والمسلمون العاديون، وكلهم من مادة تربوية واحدة، هي العلم بالكتاب والسنة، وما ينبني عليهما.

وكان الرسول ﷺ يرى التربية التوحيدية، قد أخذت تكتسي طابعًا تعليميًا في آخر عهده ﷺ، فجعل يؤكد ضرورة إقبال علماء الصحابة على التعليم، وإقبال جمهور الأمة على التعلم، موجهًا بين ترغيب وترهيب. فيقول في شأن العلماء المربين: «**من سئل عن علم فكتمه، ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار**»[1]، ويقول: «**علّموا، ويسّروا، ولا تعسّروا، وبشّروا، ولا تنفروا، فإذا غضب أحدكم فليسكت**»[2]، وهذا حديث فيه دلالة واضحة على ضرورة إعطاء البعد التربوي للمسألة العلمية

---

(١) رواه أحمد، والأربعة، والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٦٢٨٤.

(٢) رواه أحمد، والبخاري في الأدب المفرد، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٤٠٢٧.

والتعليمية، ولذلك فإنه ﷺ حمّل علماء الصحابة، ومن بعدهم، مسؤولية التربية بالتعليم، وهذا بَيِّنٌ مما سبق من نصوص. كما يتبين أيضًا من قوله ﷺ: «**مثل الذي يتعلّم العلم ثم لا يحدث به، كمثل الذي يكنز، فلا ينفق منه**»[1].

وقال في خطبة حجة الوداع: «**ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلِّغ من هو أوعى منه**»[2].

كما عمل ﷺ على ترغيب جمهور الأمة في طلب العلم المفيد، للعمل، أي الذي له ثمرة تربوية، فقال: «**مَنْ جاء مسجدي هذا، لم يأته إلاّ لخير يتعلمه، أو يعلمه، فهو في منزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاءه لغير ذلك، فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره**»[3].

وقال ﷺ: «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين**»[4]، وقال في الاجتماع على مدارسة القرآن: «**ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه فيما بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة، وحفتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده**»[5].

وشجع ﷺ من لم يجد مسجداً، أو مكانًا قريبًا، فيه علم، أو لم يجد

---

(١) رواه الطبراني، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٥٨٣٥.
(٢) متفق عليه.
(٣) رواه ابن ماجه، والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٦١٨٤.
(٤) متفق عليه.
(٥) رواه مسلم.

عالمًا بموطنه، أن يرحل في طلب العلم، فقال ﷺ: «**من سلك طريقًا، يبتغي فيه علمًا، سهّل الله له به طريقًا إلى الجنة، ومن أبطأ به عمله، لم يسرع به نسبه**»[1]، إشارة منه ﷺ إلى أن العلم هو الطريق الصحيح للعمل!

وللحديث تتمة في رواية أخرى صحيحة، فيها:

«**وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم، رضا بما يصنع.. وإن العالم ليستغفر له من في السماوات، ومن في الأرض، والحيتان في جوف الماء.. وإن فضل العالم على العابد، كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب.. وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يُوَرِّثُوا دينارًا، ولا درهمًا، وإنما ورَّثوا العلم، فمن أخذه، أخذ بحظ وافر**»[2].

هكذا تتضافر النصوص، لتجعل من العلم، تعليمًا وتعلمًا، قضية أساسية في المنهجية الإسلامية جملة، لأنه السبيل الأضبط لاستمرارية التدين السليم، في الفكر والتصور، وفي العمل والسلوك. وتفرّق الصحابة في كل اتجاه، حاملين الدعوة إلى الناس، مربين إياهم على دين الله، فكانت بداية ذلك في آخر عهد رسول الله ﷺ، كما رأينا، واتسع ليشمل الأمر عددًا أكثر من الصحابة المربين، ومناطق أخرى من بلاد المسلمين، وذلك في عهد الخلفاء الراشدين..

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد، والأربعة، وابن حبان، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٦٢٩٧.

فكانت التربية العلمية، التي مارسها الصحابة في الأمصار، هي النواة التي تطورت عنها العلوم الشرعية، فيما بعد، كعلم التفسير، وعلم الحديث والفقه. . .الخ.

كأنما الرسول ﷺ، علم أن رجالاً من أمته، سينصرفون عن العلم إلى العبادة، بمعناها الضيق، أي الذكر، والصلاة، والصيام، والزهد، فبيّن عليه الصلاة والسلام، أن العلم هو صلب العبادة، وأنه الصفة التي ورّثها الأنبياء للعلماء، كما تبين من الحديث السابق. ففضل العالِم على العابد، بهذا المعنى، كما رأيت، كما فضل البدر على سائر الكواكب، وندب مَن وجد فراغًا، أن يبادر إلى العلم النافع، لأن فضله خير من فضل التعبد، بالمعنى المذكور، إذ العلم عبادة متعدية بالخير إلى الناس، والتعبد عبادة لازمة لصاحبها فقط، فقال ﷺ : «**فضل العالم على العابد، كفضلي على أدناكم، إن الله عز وجل، وملائكته، وأهل السموات والأرض، حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت، ليصلون على معلِّم الناس الخير**»[1].

ولذلك كان العلم شرط الإمارة في عهده ﷺ، كما رأيت، وبقي شرطها فيما بعد، وشرط كل عمل تربوي، ودعوي، كيفما كان، قال ﷺ : «**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا، ينتزعه من الناس، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا، اتخذ الناس رؤوسًا جهالاً، فسُئلوا،**

(١) رواه الترمذي، وصححه الألباني في (ص ج ص)، ٤٢١٣.

فأفتوا بغير علم، فضلّوا وأضلوا»[١]، وكما قد تكون الفتوى فقهية، فقد تكون تنفيذية، أو تربوية، أو توجيهية، في هذا المجال الدعوي، أو ذاك، وكل ذلك فتوى تحتاج إلى علم بالكتاب والسنة.

وهكذا ختم الرسول ﷺ حياته الدعوية، الحافلة بالعمل التربوي، وهو يوصي العلماء المربين من صحابته، الذين حملوا الرسالة التربوية، من بعده ﷺ بالحلم، والتيسير، والتبشير بالخير، وقال فيما كان يقول في هذا المجال ﷺ: **«إن الله لم يبعثني معنتاً ولا متعنتاً، ولكن بعثني معلمًا، ميسراً»**[٢]، وكان المنهج التربوي النبوي توحيدياً، في كل مراحله الثلاث، فلم يتعد مصدريته، أي كتاب الله عز وجل، وبيانه النبوي.. فالقرآن كان هو الينبوع الصافي، الذي لم يَشُبْه توجيه فلسفي، ولا قصص إسرائيلي، ولا حِكَم هندية، أو إغريقية، به تربّى الرسول ﷺ، وعليه ربّى أصحابه، سواء كان مؤسساً للنخبة الأولى بدار الأرقم، أو صانعاً للجندية الأنصارية بمنبر المدينة، أو معلماً للآفاق، فقه الدين والتدين، عبر رسله وتلامذته، ﷺ.

---

(١) متفق عليه.
(٢) رواه مسلم.

المبحث الثالث
تطور المنهج التربوي النبوي بعد وفاته ﷺ

لقد اضطلع الصحابة، رضوان الله عليهم، بعد وفاة النبي ﷺ، بالمسؤولية التربوية، التي كلفهم بها في حياته عليه الصلاة والسلام، واستمروا في تنزيل المضمون التوحيدي، للتربية، في الإطار التعليمي على العموم، مع مراعاة الأهداف والوسائل الأرقمية والمنبرية، هنا، أو هناك، فهم أئمة الأمصار، وخطباء المساجد، والمربون للعموم والخصوص، وللصالح والطالح، قال الحسن البصري التابعي الجليل: «أدركنا الصدر الأول، يعلمون صغيرنا وكبيرنا، بَرَّنا وفاجرنا، وصالحنا وطالحنا، ونحن نريد أن نؤديه كذلك»[1].

فهو إذن منهج تعليمي عام، بيد أنَّا نجد بعضهم يخص بعض الشباب، من فضلاء التابعين، بتربية أرقمية خاصة، فقد سبق عن أبي وائل، شقيق ابن سلمة، قال: «كان ابن مسعود رضي الله عنه، يذكرنا في كل خميس مرة، فقال رجل: يا أبا عبد الرحمن، لوددت أنك ذكرتنا كل يوم، فقال: أما إنه يمنعني من ذلك، أني أكره أن أملكم، وإني أتخولكم بالموعظة، كما كان رسول الله ﷺ يتخولنا بها، مخافة السآمة علينا»[2].

---

(١) التاريخ الكبير للبخاري، ١٠١/٤.

(٢) متفق عليه.

وهذه طريقة أرقمية، تعتمد التكوين المتدرج، عبر الجلسة المنحصرة وقتًا، وعدداً، لتخريج الطاقات القيادية خاصة! وقد استمر المنهج التربوي، بمضمون التوحيد، سواء بالصورة الأرقمية، أو المنبرية، أو التعليمية، زهاء ثلاثة قرون، كان خلالها هو المنهج المنتشر، والمعتمد أساسًا في تربية الأجيال، قيادات، وجنوداً.. وخلال القرن الثالث الهجري، بدأت مظاهر الانتقاص التربوي، في المنهج التوحيدي، من خلال ما صار يتكون من مناهج وساطية، نظراً لدخول الثقافات الأجنبية، التي بدأت تزاحم المصدرية القرآنية والحديثية، في تشكيل عقل الأمة، غير أنه لم يستتب لها الأمر إلا في القرن الرابع الهجري، حيث كثر الإقبال على الوساطات الفكرية، والروحية، على السواء.. هذا المعنى، يشير إليه حديث الرسول ﷺ، الذي قال فيه: «**خير الناس، القرن الذي أنا فيه، ثم الثاني، ثم الثالث**»(١).

وكذلك قوله عليه الصلاة والسلام، في سماع المنهج: «**تسمعون ويسمع منكم، ويسمع ممن يسمع منكم**»(٢)، وهذا ما سنبينه بحول الله مفصلاً.

أما الصحابة، فقد قادوا حملة التعليم، التي بدأوها في آخر عهد رسول الله ﷺ، قال الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: «جرت عادة الرسول ﷺ،

---

(١) رواه مسلم

(٢) رواه أحمد، وأبو داود، والحاكم، وصححه الألباني (ص ج ص)، ٢٩٤٧.

والخلفاء الراشدين من بعده، على إرسال الفقهاء، والقرآء، إلى البلاد المفتوحة، ليفقهوا أهلها في الدين، فقد بعث رسول الله ﷺ، بعض علماء الصحابة، وفقهائهم إلى اليمن، والبحرين، وإلى مكة بعد فتحها.. كما بعث عمر بن الخطاب، معاذ بن جبل إلى الشام، وكان ضنيناً به، حريصاً على بقائه بالمدينة»[1].

وقد ازدهرت عملية إرسال فقهاء الصحابة إلى الأقطار، في عهد عمر خاصة، وذلك نظراً لدخول شعوب، ومناطق جديدة في الإسلام، بعد عملية الفتح، التي بدأت تتسع في عهده، رضي الله عنه، ولذلك قال ابن حزم الأندلسي: «فلما ولي عمر رضي الله عنه، فتحت الأمصار، وزاد تفرق الصحابة في الأقطار»[2]، حتى إنه كان «للأمصار الإسلامية، فقهاؤها، وعلماؤها المعروفون، يفتون ويعلمون، فعرف كل مصر بفقيهه، أو فقهائه من الصحابة»[3]، وقد كان لهم الدور الأكبر، في تكوين العلماء والأئمة، من قيادات التابعين[4]، وكان الصحابة يرون العلم، شرطاً في الإمامة السياسية، والتربوية، على السواء.

قال عمر بن الخطاب، رضي الله عنه: «تفقّهوا قبل أن تسودوا»[5]،

---

(١) الفكر الأصولي، ٤٠.
(٢) الإحكام في أصول الأحكام، ٢/١٢٦.
(٣) الفكر الأصولي، ٤٠.
(٤) حركة النقد الحديثي، ١/٣٣.
(٥) كتاب العلم للنسائي، ٨.

ومر عليٌّ بن أبي طالب، رضي الله عنه بقاص، أي واعظ، فقال له: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت، وأهلكت»[1].

وكان التعليم الذي قام به الصحابة، ذا مضمون تربوي مقصود، ينطلق من القرآن والسنة أساساً، فقد كان أول ما قاله أبو موسى الأشعري للبصريين حين قدم إليهم: «إن أمير المؤمنين عمر بعثني إليكم، أعلمكم كتاب ربكم عز وجل، وسنة نبيكم ﷺ، وأنظف لكم طرقكم»[2].

ويصف لنا التابعي الجليل، أبو رجاء العُطَاردي، طريقة ذلك، وكيفية تنظيم أبي موسى، رضي الله عنه، للجلسات القرآنية، قال: «كان أبو موسى الأشعري يطوف علينا، في هذا المسجد، مسجد البصرة، يعقد حِلَقًا، فكأني أنظر إليه بين بردين أبيضين، يقرئني القرآن»[3]، حتى إذا تخرّج على يديه، رضي الله عنه، جمع كبير من أعلام التابعين، جمعهم ليعظهم، ويعلمهم كيف يتعاملون مع القرآن.

فقد أخرج أبو نعيم بسنده، عن أبي كنانة، أن أبا موسى: «جمع الذين قرأوا القرآن، فإذا هم قريب من ثلاثمائة! فعظم القرآن، وقال: إن هذا القرآن كائن لكم أجراً، وكائن عليكم وزراً، فاتبعوا القرآن، ولا يتبعنكم القرآن..

---

(١) السابق، ٣١، وقال الألباني معلقًا بهامشه: «إسناده صحيح، على شرط الشيخين».

(٢) الحلية لأبي نعيم، ١/٢٥٧.

(٣) السابق، ١/٢٥٦.

فإنه من اتبع القرآنَ، هبط به على رياض الجنة، ومن تبعه القرآن زخ في قفاه، فقذفه في النار!»[١]، وإنما كانت قراءتهم القرآن، حفظًا، ومدارسة، للتكوين، والتربية، والتفقه، وكان ذلك عندهم ضربًا من التعبد المحض، فقد نقل عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قوله: «الدراسة صلاة»[٢].

وقد تخرج على هذا المنهج النبوي، جيل من فضلاء التابعين، برزت منهم جملة من القيادات العلمية، وفي طليعتهم بالمدينة المنورة: الفقهاء السبعة، وهم: سعيد بن المسيب، وعمرو بن الزبير، والقاسم بن محمد، وخارجة بن زيد، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله.

وكان منهم بالكوفة: علقمة بن قيس النخعي، والأسود بن يزيد النخعي، وعمرو بن شرحبيل الهمذاني، وشريح بن الحارث القاضي، وغيرهم كثير[٣].

كما كان منهم بالبصرة، علماء مربون مثل: الحسن البصري، وأبو قلابة الجرمي، وأبو العالية الرياحي، وغيرهم[٤].

---

(١) السابق، ١/٢٥٧.
(٢) جامع بيان العلم، ٢٦.
(٣) الفكر الأصولي، ٤٢.
(٤) انظر حركة النقد الحديثي بالبصرة، (الجزء الأول).

وفي كل الأمصار الإسلامية الأخرى، كاليمن، وفارس، ومصر، وغيرها، كان هناك علماء تابعون، حملوا راية التعليم، والتربية، بقواعد وأصول المنهج النبوي التوحيدي. وقد أشرت إلى أن مصطلح العلم، في عهد الصحابة، إنما كان يطلق على النصوص الشرعية فحسب، وكذلك بقي بهذا المعنى في عهد التابعين وأتباعهم، ولو أنه بدأت في أواخر هذه المرحلة تتبلور المعاني الجديدة للمصطلح، المتعلقة بالمصطلحات العلمية، والقواعد، والمناهج، لهذا العلم أو ذاك، فعن ابن جريج قال: «سألت عطاء عن رجل غريب، قدم في غير أشهر الحج معتمراً، ثم بدا له أن يحج في أشهر الحج، أيكون متمتعًا؟ قال: لا يكون متمتعًا، حتى يأتي من ميقاته في أشهر الحج.. قلت: أرأي أم علم؟ قال: بل علم»[1].

وعن بقية بن الوليد، قال: «قال لي الأوزاعي: يا بقية: العلم ما جاء عن أصحاب محمد ﷺ، وما لم يجئ عن أصحاب محمد ﷺ، فليس بعلم»[2].

وقال أبو عمر بن عبد البر، معلقًا على هذين النصين، ونصوص أخرى مثلها: «ولا أعلم بين متقدمي هذه الأمة وسلفها، خلافًا، أن الرأي ليس بعلم حقيقة.. وأفضل ما روي عنهم في الرأي، أنهم قالوا: نِعْمَ وزيرُ العلم، الرأي الحسن»[3].

---

(١) جامع بيان العلم، ٣٨/٢.
(٢) السابق، ٣٩/٢.
(٣) السابق، ٤١/٢.

والمقصود من ذلك، التأكيد أن العلم المعتمد للتربية، لدى التابعين وأتباعهم، إنما هو النصوص الشرعية أساسًا.. فيتبين أن المنهج التوحيدي النبوي، هو الذي بقي ساريًا طوال هذه الفترة. فما كان التابعون وأتباعهم، يرضون عن كتاب الله، وسنة نبيه بديلاً، كمادة وحيدة للتربية.

قال الحسن البصري، رحمه الله: «إن المؤمنين شهود الله في الأرض، يعرضون أعمال بني آدم، على كتاب الله، فمن وافق كتاب الله، حمد الله عليه، ومن خالف كتاب الله، عرفوا أنه مخالف لكتاب الله، وعرفوا بالقرآن ضلالة من ضل من الخلق»(١).

وقال أبو العالية الرياحي: «تعلّموا القرآن، فإذا تعلمتموه، فلا ترغبوا عنه، وإياكم وهذه الأهواء، فإنها توقع بينكم العداوة والبغضاء»(٢).

ويتحدث أبو قلابة الجرمي، رحمه الله، بإشارة لطيفة إلى الأثر التربوي، الذي يتركه الحديث النبوي على طالبه، وما يتعلق به منه، من خُلق وتدين، منتقداً طريقة القصاص من الوعاظ، الذين يحدثون من خيالاتهم.. قال رحمه الله: «ما أمات العلم إلا القصاص، يجالس الرجلُ القاصَّ سنة، فلا يتعلق منه بشيء، ويجلس إلى العلم، فلا يقوم حتى يتعلق منه بشيء»(٣).

---

(١) الحلية، ١٥٨/٢.
(٢) السابق، ٢١٨/٢.
(٣) السابق، ٢٨٧/٢.

ومن هنا كان حرص التابعين، ومن تبعهم، على تخليص مصادر التربية والتعليم، من كل ما سوى كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ.

وكانت المدرسة الحديثية، في تلك المرحلة، هي المدرسة الأقرب إلى المنهاج التربوي النبوي. حيث كانت لها جلسات أرقمية راقية، وكان الحديث النبوي، كما ذكرنا، هو علم المرحلة، تعلماً، وتعليماً، ومدارسة، فقد كان عبد الرحمن بن مهدي، المتوفى سنة ١٩٨هـ، يعقد جلسات العلم، في جو تعبدي وقور، كأن أوله تحريم، وآخره تسليم، قال أحمد بن سنان: «كان لا يُتحدَّث في مجلس عبد الرحمن، ولا يُبْرى قلم، ولا يتبسم أحد، ولا يقوم أحد قائماً، كأن على رؤوسهم الطير، أو كأنهم في صلاة، فإذا رأى أحداً منهم تبسم، أو تحدث، لبس نعليه وخرج»[١].

وكانوا يختمون جلساتهم العلمية بالدعاء، وقد فعل ذلك الحسن البصري، ويونس بن عبيد، وقتادة بن دعامة السدوسي[٢].

وعن القصد التربوي، تكلم الحسن البصري، في علم الحديث، فقال: «لقد طلب أقوام هذا العلم، ما أرادوا به الله وما عنده، فما زال بهم حتى أرادوا به الله وما عنده»[٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء، ٩/٢٠١-٢٠٢.
(٢) حركة النقد الحديثي، ١/٨٩.
(٣) جامع بيان العلم، ٢/٢٨.

وقال سفيان الثوري: «كنا نطلب العلم للدنيا، فجرنا إلى الآخرة»[1].

وعن معمر قال: «إن الرجل ليطلب العلم لغير الله، فيأبى عليه العلم، حتى يكون لله»[2].

ولذلك فقد كان طلب الحديث عندهم، طلبًا لتطبيقه أيضًا، قال أيوب السختياني، المتوفى سنة ١٣١هـ: «قال لي أبو قلابة (وهو تابعي توفي سنة: ١٠٤هـ) إذا أحدث الله لك علمًا، فأحدث له عبادة، ولا يكن همك أن تحدث به»[3].

«وصلى رجل ممن يكتب الحديث، بجنب ابن مهدي، فلم يرفع يديه، فلما سلّم، قال له: ألم تكتب عن ابن عيينة، حديث الزهري، عن سالم عن أبيه، أن النبي ﷺ، كان يرفع يديه في كل تكبيرة؟ قال: نعم، قال: فماذا تقول لربك، إذا لقيك، في تركك لهذا، وعدم استعماله؟»[4].

وعن بشر بن الحارث، أنه قال: «يا أصحاب الحديث، أتؤدون زكاة الحديث؟ فقيل له: يا أبا نصر، وللحديث زكاة؟! قال: نعم، إذا سمعتم الحديث، فما كان فيه من عمل، أو صلاة، أو تسبيح، استعملوه»[5].

---

(١) السابق، ٢/٢٨.
(٢) السابق، ٢/٢٨.
(٣) السابق، ٢/١٤، وفتح المغيث للسخاوي، ٢/٣٦١.
(٤) فتح المغيث، ٢/٣٦٠.
(٥) السابق، ٢/٣٦١.

وقال الحسن البصري: «كان طالب العلم، يُرى ذلك في سمعه، وبصره، وتخشعه»[1].

ومعلوم أنه كان يُشترط في الراوي، ليقبل حديثه، أن يكون عدلاً، ضابطًا.. والعدالة والضبط، مفهومان إسلاميان، يكونان كمال الشخصية المسلمة، وهما مأخوذان من مصطلحي القوة، والأمانة، المذكورين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦).

ومن هنا كان المحدثون، يسعون إلى اكتساب الصفات التربوية، التي تؤهلهم لرواية الحديث، فقد قال أبو العالية الرياحي المتوفى سنة ٩٠هـ: «أرحل إلى الرجل مسيرة أيام، فأول ما أتفقده من أمره، صلاته. فإن وجدته يقيمها، ويتمها، أقمت، وسمعت منه، وإن وجدته يضيعها رجعت، ولم أسمع منه، وقلت: هو لغير الصلاة أضيع»[2].

وقال أبو عاصم النبيل، المتوفى سنة ٢١٢هـ: «من طلب هذا الحديث، فقد طلب أعلى أمور الدين، فيجب أن يكون خير الناس»[3].

وقال سفيان بن عيينة، وهو من أتباع التابعين: «من طلب الحديث، فقد بايع الله»[4].

---

(١) جامع بيان العلم، ١/١٥٤.
(٢) الحلية، ٢/٢٢٠، وسير أعلام النبلاء، ٤/٥٨٣.
(٣) تدريب الراوي، ٢/١٢٩.
(٤) الحلية، ٧/٢٨٠.

هذا، وقد كان التابعون وأتباعهم، ماضين على منهج الرسول ﷺ، والصحابة، في التقليل من مادة الجلسة التربوية، حتى يؤتي العلم أكله التربوي، فمن ذلك مثلاً، ما كان يوصي به أبو العالية الرياحي أصحابه، قائلاً: «تعلّموا القرآن خمس آيات، فإنّه أحفظ لكم، فإن جبريل كان ينزل به خمس آيات، خمس آيات»[1].

وعن خالد الحذّاء، قال: «كنّا نأتي أبا قلابة (الجرمي)، فإذا حدثنا بثلاثة أحاديث، قال: قد أكثرت»[2].

وهكذا، ففي هذه الفترة بدأ يتبلور رسم علم الحديث، مصطلحًا، ونقدًا، ولكنه مع ذلك، ظل يحمل ذلك المضمون التربوي، الذي نشأ على أساسه.. فقد قيل لشعبة بن الحجاج، المتوفى سنة ١٦٠هـ: «يا أبا بسطام، كيف تركت علم الرجال، وفضحتهم، فلو كففت؟ فقال: أجلوني، حتى أنظر الليلة، فيما بيني وبين خالقي، هل يسعني ذلك؟ فلما كان الغد، خرج على حَميرٍ له، فقال: قد نظرتُ فيما بيني وبين خالقي، فلا يسعني دون أن أبين أمورهم للناس وللإسلام»[3].

---

(١) السابق، ٢/٢١٩-٢٢٠.
(٢) السابق، ٢/٢٨٧.
(٣) الضعفاء لأبي نعيم، ٥٣، والكفاية للخطيب، ٤٤.

ولذلك قيل: «كلام شعبة في الرجال، حِسْبة يتدين به»[1].. وشعبة أمير المؤمنين في الحديث، على اصطلاح المحدثين، قال فيه ابن حجر العسقلاني: «ثقة، حافظ، متقن .. كان الثوري يقول: هو أمير المؤمنين في الحديث، وهو أول من فتّش بالعراق عن الرجال، وذبَّ عن السنة، وكان عابداً»[2].. فالنقد الحديثي، لديه إذن، لم يكن إلا تعبداً، وتربية لغيره، في نفس الوقت، فقد اشتهرت عنه عبارة: (الاغتياب في الله)، كناية عن النقد، حيث يعقد لذلك جلسة، كأنه يؤمن فيها ساعة، فاقرأ ما ذكره أبو نعيم، رحمه الله، عنه قائلاً: «كان شعبة يأتي عمران بن جدير، فيقول: تعال يا عمران، نغتاب في الله ساعة، نذكر مساوئ أصحاب الحديث»[3].

ويراوح في جلساته العلمية، بين التحديث، والنقد، فتكون جلسته هذه، كجلسته تلك، لا تخلو من معنى التعبد.

قال أبو زيد الأنصاري النحوي: «أتينا شعبة يوم مطر، فقال: ليس هذا يوم حديث، اليوم يوم غيبة، تعالوا حتى نغتاب الكذابين»[4]، وقد اشتهر قوله: «تعالوا حتى نغتاب في الله»[5]، ويمر على قاص

---

(١) الجرح والتعديل، ١/٢٧٢ و٢/٢٢.

(٢) تقريب التهذيب (شعبة)، ١/٣٥١.

(٣) الحلية، ٧/١٥٢، والكفاية، ٤٤.

(٤) الكفاية، ٤٥.

(٥) السابق، ٤٥، وسير أعلام النبلاء، ٧/٢٢٣.

يحدث كذبًا، فيقول: «والله، لولا أنه لا يحل لي أن أسكتَ عنه، لسكت»[1].

إن هذه النصوص كلها، لتدل دلالة واضحة، على أن العلم، بمفهومه في الصدر الأول للإسلام، كان طلبه، أو تدريسه، تربية.. فهو اجتماع، على مدارسة القرآن، وكلام رسول الله ﷺ، في جلسات يهيمن عليها الشعور التعبدي، إذ تُربط القلوب، والعقول، بالمفاهيم الإسلامية، ارتباطًا وثيقًا، حتى تصير سلوكًا حيًا، في حياة العلماء والمتعلمين، على السواء.

لقد كان العلم حينئذ، يخدم عدة أغراض: فهو وسيلة لنقل نصوص الدين، ووسيلة لتكوين المتدينين، ووسيلة لإنتاج الدعاة إلى التدين.. وقد استمر العلم على هذه الحال، وسيلة تربوية، بالقصد الأول، كما كان في القرن الأول والثاني. وقد شهد القرن الثاني، والثالث، ميلاد المدارس الفقهية. فأبو حنيفة النعمان، توفي سنة ١٥٠هـ، والإمام الأوزاعي سنة ١٥٧هـ، والليث بن سعد سنة ١٧٥هـ، ومالك بن أنس سنة ١٧٩، والشافعي سنة ٢٠٤هـ، وأحمد بن حنبل سنة ٢٤١هـ.

قال الدكتور عبد الوهاب أبو سليمان: «وفي هذه الفترة، بدأت تتحدد مدلولات العلوم الإسلامية، وتستقل بالتأليف.. فعلم العقيدة،

(١) الحلية، ١٥١/٧.

والتفسير، والحديث، والفقه، أصبح لكل منها، مدلول خاص، وموضوعات متميزة، عكس ما كان قبل ذلك. فعلم الفقه، كان يطلق على مجموع العلوم الشرعية، من حديث، وعقائد، وتفسير وأخلاق، وتصوف»[1].

وقد حافظ الفقهاء مع ذلك على طريقة المحدثين الأوائل، من حيث ارتباطهم بالنصوص الشرعية أساساً، تعلّماً، وتعليماً، ودراسة، واستنباطاً، ومن حيث تركيزهم على المعنى التربوي في تدريس العلم، ومدارسته.. فقد كان مالك بن أنس لا يجلس إلى طلبته بمجلس العلم، إلا وهو متوضئ[2].. ويصف أبو نُعيم رحمه الله، جلسته العلمية، بما يدل على بُعدها التربوي، قائلاً:

«كان مالك إذا أراد أن يحدث، توضأ، وجلس على فراشه، وسرّح لحيته، وتمكّن في الجلوس بوقار وهيبة، ثم حدَّث. فقيل له في ذلك، فقال: أحب أن أعظم حديث رسول الله ﷺ، ولا أحدِّث به إلا على طهارة، متمكناً، وكان يكره أن يحدث في الطريق، وهو قائم، أو يستعجل.. فقال: أحب أن أتفهم ما أحدِّث به عن رسول الله ﷺ»[3].

---

(١) الفكر الأصولي، ٥٨.
(٢) جامع بيان العلم، ٢/٢٤٣.
(٣) الحلية، ٦/٣١٨.

كما قال في نفس السياق، متحدثًا عما ينبغي أن يكون عليه المتعلم: «وحق على من طلب العلم، أن يكون له وقار، وسكينة، وخشية.. والعلم حسن، لمن رُزق خيره... وذل وإهانة للعلم، أن يتكلم الرجل بالعلم عند من لا يطيعه»[1]، أي يطيع العلم، منبهًا بذلك إلى أن على المتعلم، أن يعمل بما يسمع من علم، ويتعظ به، ويظهر أثره في تدينه، وخشوعه، وسكينته، مؤكدًا بذلك القصد التعبدي للعلم، أي الحديث النبوي، باعتباره مادة للتربية، ولذلك قال لطالبٍ قام عن المجلس ليتنفل: «ما الذي قمتَ إليه، بأفضل من الذي كنتَ فيه، إذا صحت النية فيه»[2].

وقال الإمام الشافعي: «لَطَلَبُ الحديث، أفضل من الصلاة النافلة»[3].

هذا، وقد اشتهر ارتباط الفقهاء الأئمة، بالمصادر الأولى للإسلام مباشرة، كما اشتهر عن أغلبهم قولهم: «إذا صح الحديث عن رسول الله ﷺ، فهو مذهبي».

وكذا ما يُروى عن مالك بن أنس أنه قال: «كل رجل يؤخذ من كلامه ويرد، إلا صاحب هذا القبر»، يعني الرسول ﷺ.. وكذا قوله رحمه الله

---

(١) السابق، ٦/٣٢٠.
(٢) جامع بيان العلم، ١/٣٠.
(٣) السابق، ١/٣٠.

أيضـًا: «إنما أنا بشـر أخطئ وأصـيب، فـانظروا في رأيي، فكل مـا وافق الكتاب والسنة، فخذوا به، وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة، فاتركوه»[1].

وهذا إن دل على شيء، فإنما يدل على توحيدية المنهج الفقهي، وعدم وساطيته، في تلك المرحلة، مرحلة الإنتاج، والإبداع، والتجديد.. فالنص الشرعي، هو المصدر الوحيد للتلقي، وكل ما ذكر عنهم من قياس أو غيره، إنما هي مناهج، لا مصادر حقيقية، مهمتها توسيع دائرة الخطاب الشرعي، ليشمل ما ليس ظاهرًا فيه، وإن كان يشمله في الحقيقة ضمنًا.. ولذلك قال الإمام الشافعي رحمه الله:

«فإن من أدرك علم أحكام الله، في كتابه، نصًا واستدلالاً، ووفقه الله للقول، والعمل، بما علم منه، فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الريب، ونوّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة... فليست تنزل بأحدٍ من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها»[2].

فهذا نص واضح في أن الارتباط بالقرآن، في استمداد منهج التدين، هو السبيل المؤدي إلى إنتاج العقلية القيادية، أو الإمامة في الدين، كما في

---

(١) ترتيب المدارك، ١/١٨٢.
(٢) الرسالة، ١٩-٢٠.

النص، وأن القرآن يتضمن كل ما يحتاجه المسلم في حياته التدينية، كما ذكرت.

ومن هنا، يتأكد ما قررناه من توحيدية المنهج التديني، الذي كان عليه فقهاء الأمصار، تعلمًا، وتعليمًا، واستنباطًا، وإفتاءً، ولذلك قرر الغزالي رحمه الله، بَعدُ وحدانية (المصدرية) القرآنية، في مجال التشريع، مبعداً مصدرية العقل، الذي هو مرجع منهجي فحسب، قال: «وأما العقل فلا يدل على الأحكام الشرعية... فتسمية العقل أصلاً من أصول الأدلة، تجوز»[1].

والغزالي، إنما كان يصف واقع المنهج الاستنباطي، عند الأئمة الأعلام، من فقهاء المذاهب.

وهكذا نجد التوحيدية النبوية، استمرت بمضمونها التربوي، مع العلماء المربين من الصحابة، ثم مع أتباعهم، ومن تلاهم من المحدثين الأوائل، كما رأينا، وأخيراً مع أئمة الفقه الإسلامي، الذين استمروا على نفس المنهج التوحيدي، الذي ورثوه عن التابعين وأتباعهم، ولذلك قال ابن حزم، مؤكداً هذه الاستمرارية:

(١) المستصفى، ٨٠.

«ثم أتى بعد التابعين، فقهاء الأمصار، كأبي حنيفة، وسفيان، وابن أبي ليلى بالكوفة، وابن جريج بمكة، ومالك، وابن الماجشون بالمدينة، وعثمان البتي وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث بمصر، فجَرَوْا على تلك الطريقة، مِنْ أَخْذِ كل واحد منهم، عن التابعين، من أهل بلده، فيما كان عندهم»[1].

فالمضمون إذن واحد، هو المنهج التوحيدي، من حيث الارتباط المصدري بالقرآن والسنة.. والشكل متعدد، حسب الظروف الاجتماعية، فهو إن تبلور في إطار صناعة الحديث، في القرن الأول، والثاني الهجريين، فإنه تبلور في إطار الفقه الإسلامي في القرن الثاني، والثالث، وبذلك يكون القرن الثاني، شهد مرحلة الانتقال من رواية النصوص ونقدها خاصة، إلى مرحلة فهمها وفقهها، وتطبيقها بصورة أوسع، وأعمق.

فالنص هو النص، لكن طريقة التعامل معه، هي التي كانت تختلف، حسب الحاجة المرحلية. ولذا يكون القرن الثاني، قرناً مخضرماً، بين هذا الشكل وذاك.

والخلاصة، أن هذه هي القرون الثلاثة، المشهود لها بالخيرية في

(١) الإحكام في أصول الأحكام، ١٢٨/٢.

الحديث الصحيح كما تقدم. وقد كان العلم الشرعي فيها، يحمل راية التربية النبوية، لتخريج قادة الأمة وجنودها، على السواء، انطلاقًا من كتاب الله، وسنة رسوله ﷺ، ولذلك قال ابن حزم، بعد عدة أبواب من كتاب الإحكام، تحدث فيها عن فقهاء الصحابة، والتابعين، ومَن بعدهم، ولزوم التدين على منهجهم:

«فرض على كل جماعة مجتمعة: قرية، أو مدينة، أو دسكرة -وهي المجشرة في المغرب- أو حلة أعراب، أو حصن، أن ينتدب منهم لطلب جميع أحكام الديانة، أولها عن أخرها، ولتعلم القرآن كله، ولكتابة كل ما صح عن النبي ﷺ، من أحاديث الأحكام، وضبطها بنصوص ألفاظها، وضبط كل ما أجمع المسلمون عليه، وما اختلفوا فيه، مَن يقوم بتعليمهم، وتفقيههم، من القرآن، والحديث، والإجماع ... فإن لم يجدوا في محلتهم من يفقههم في ذلك كله، كما ذكرنا، ففرض عليهم الرحيل، إلى حيث يجدون العلماء المحتوين على صنوف العلم، وإن بعدت ديارهم، ولو أنهم بالصين، لقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ﴾ (التوبة: ١٢٢). والنفار، والرجوع، لا يكون إلا برحيل، ومن وجد في محلته، مَن يفقهه في صنوف العلم، كما ذكرنا، فالأمة مجمعة على أنه لا يلزمه رحيل في ذلك،

إلا القصد إلى مسجد الفقيه، أو منزله فقط، كما كان الصحابة يفعلون مع النبي ﷺ »[١].

وهكذا ترسخ في ذهن الأوائل ، من علماء هذه الأمة ، كابن حزم - وهو رجل عاش في القرن الخامس الهجري (ت٤٥٦هـ)- أن استمرار التدين ، لا يكون إلا بالتفقه في المصادر الشرعية للإسلام : كتاب الله، وسنة نبيه ﷺ، باعتبار ذلك كان الوسيلة التربوية ، التي تبلور فيها المنهج التوحيدي النبوي، في مرحلته العلمية، كما أسلفنا، فصار العلم الشرعي، بمضمونه التربوي المنتج، واجباً بإجماع الأمة، كما ذكر ابن حزم رحمه الله.

(١) الإحكام، ٥/١٢٣.

الفهـــــرس

الموضــــوع	الصفحة

وكـــــلاء التـــوزيــــع

البلد	اسم الوكيل	رقم الهاتف	عنوانه
قطر	□ دار الثقافة	٤١٤١٨٢	ص.ب: ٨١٥٠ ـ الدوحة
	□ دار الثقافة «قسم توزيع الكتاب»	٤١٣٤٧١	فاكس: ٤٣٦٨٠٠ ـ بجوار سوق الجبر
الإمارات	□ المكتبة الحديثة	٦٥٥٦٢٢	ص.ب: ١٥٥٤٠ ـ العين فاكس: ٦٦٩٥٤٠
البحرين	□ مكتبة الآداب	٢٣١٠٦٢ ٢١٠٧٦٨ (المنامة) ٦٨١٢٤٣ (مدينة عيسى)	ص.ب: ٢٨٧ ـ البحرين فاكس: ٢١٠٧٦٦
السعودية	□ شركة تهامة للتوزيع	٦٦٩٥٠٠٠	ص.ب: ٩٤٠٩ جدة ٢١٤١٣ ٢١٠ شارع الملك فهد ـ خلف أسواق الويعر فاكس: ٦٦٠٧٦٠٠
عمان	□ مكتبة الثقافة الإسلامية	٢٩٢٩٣٤ ٢٩٤٩٨٦	ص.ب: ١٨٦٨٢ ـ ظفار ـ صلالة فاكس: ٢٩٢٨٧٩
الكويت	□ مكتبة دار المنار الإسلامية	٢٦١٥٠٤٥	ص.ب: ٤٣٠٩٩ ـ حولي ـ شارع المثنى ـ رمز بريدي: ٣٢٠٤٥ فاكس: ٢٦٣٦٨٥٤
الأردن	□ مؤسسة الفريد للنشر والتوزيع	٦٠١٥٠١ ـ ٦٠١٥١١ ٦٠١٩١١	ص.ب: ٩٦٠٦٥٤ ـ عمّان فاكس: ٦٠١٩٩١
اليمن	□ مكتبة الجيل الجديد	٧٨٠٤٠ ـ ٧١٣٦٣ ٢٧٠٣٨ ـ ٧٥٨١١	ص.ب: ٥٤٤ ـ صنعاء
السودان	□ دار التوزيع	٧٧٩٤٦٠ ـ ٧٧٥٥٨٥	ص.ب: ٣٥٨ ـ الخرطوم
مصر	□ مؤسسة توزيع الأخبار	٧٤٨٨٤٤ ٧٤٨٨٨٨ ـ ٧٥٨٨٨٨	ص.ب: ٧ ـ القاهرة فاكس: ٥٧٤٨٧٠١
المغرب	□ الشركة العربية الأفريقية للتوزيع «سبريس»	٢٤٩٢٠٠	ص.ب: 13008 - 70 زنقة سجلماسة الدار البيضاء 5 ـ فاكس: ٢٤٩٢١٤
إنكلترا	□ دار الرعاية الإسلامية	(01) 272-5170/ 263 - 3071	Muslim Welfare House, 233. Seven Sisters Road, London N4 2DA. Fax : (071) 281 2687 Registered Charity No: 271680

كتاب الأمة

سلسلة دورية تصدر كل شهرين عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - قطر

مركز البحوث والدراسات

هاتف :	٤٤٧٣٠٠
فاكس :	٤٤٧٠٢٢
برقياً :	الأمة - الدوحة
ص . ب :	٨٩٣ الدوحة - قطر

ثمن النسخة

الأردن	٥٠٠	فلس
الإمارات	٥	دراهم
البحرين	٥٠٠	فلس
تونس		دينار واحد
السعودية	٥	ريالات
السودان	٤٠	ديناراً
عُمان	٥٠٠	بيسة
قطر	٥	ريالات
الكويت	٥٠٠	فلس
مصر	٢	جنيه
المغرب	١٠	دراهم
اليمن	٤٠	ريالاً

○ الأمريكتان وأوروبا وأستراليا وباقي دول آسيا وأفريقيا دولار أمريكي ونصف أو ما يعدله .

رقم الايداع بدار الكتب القطرية : ٣٨٢ لسنة ١٩٩٥
الرقم الدولي (ردمك) : ٠ـ٢٣ـ٢٢ـ٩٩٩٢١

مطابع
دار الثقافة
ت : ٦٠١٨٩٠ ـ ص.ب : ٣٤٨٨ ـ الدوحة ـ قطر